

العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد

ولد يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسة؛
وبويع عند انتقال الفائز يوم الجمعة قبل الصلاة لثلاث عشرة بقيت من
رجب سنة خمس وخمسين وخمسة، وعمره يومئذ تسع سنين وستة أشهر
وسبعة أيام.

وذلك أنه لما مات الخليفة الفائز ركب الصالح بن رزيك إلى القصر
بثياب الحزن، واستدعى زمام القصر، وسأله عما يصلح في القصر
للخليفة؛ فقال: ههنا جماعة. فقال: عرفني بأكبرهم. فسمى له واحداً،
فأمر بإحضاره. فتقدم إليه أمير يقال له علي بن الزيد وقال له سراً:
لا يكن عباس أحزم منك رأياً حيث اختار الصغير وترك الكبير واستبد
بالأمر، فمال إلى قوله، وقال للزمنا: أريد منك صغيراً، فقال: عندي ولد
الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ، فقال: علي
به، فأحضر إليه بعمامة لطيفة وثوب مفوط، وهو مثل الوحش، أسمر،
كبير العينين، عريض الحاجبين أحنس الأنف، منتشر المنخرين، كبير
الشفنتين، فأجلسه الصالح في البادهنج، وكان عمره إحدى عشرة سنة،
ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء، وهي
لبس ولي العهد إذا حزن على من تقدمه، وقام وألبسه إياها.

وأخذوا في تجهيز الفائز: فلما أخرج تابوته صلى عليه وحمل إلى التربة،
وأخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه، وأمر أن تحمل إليه ثياب
الخلافة، فألبسها؛ وبايعه، ثم بايعه الناس؛ ونعته بالعاضد لدين الله،
وذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين. وأبوه
أحد الأخوين اللذين قتلها الوزير عباس.

ولما بويح العاضد ركب وحملت على رأسه المظلة؛ وركب الصالح بين يديه، وخرج من التربة قاصداً قصره، وكانت عادة الخلفاء أنه إذا ورد البشير إلى أخص أهل من يبائع يعطى ألف دينار، فلما بويح العاضد حضر المبشر إلى عمته فأعطته نزرًا، فلما راجعها في الزيادة أبت عليه، فسئلت في السبب فقالت : هذا قاطع الخلفاء، وهكذا كان.

واستقر العاضد اسماً والصالح معناه، فتمكن وقويت حرمة، واستولى على الدولة وتمكن منها، ونقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة ، وأساء السيرة باحتكار الغلات، فوقع الغلاء وارتفعت الأسعار؛ وأكثر من قتل أمراء الدولة.

وفيها ولي الصالح شاور بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس السعدي الصعيد، فظهرت كفايته واستمال الرعية.

وفيها بعث العاضد بالخلع إلى نور الدين محمود صاحب دمشق، فلبسها.

وفيها توفي بمصر أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن عمر بن قاسم، المعروف بنفطوية الحضرمي، المقرئ الأديب؛ رحل فسمع ببغداد ومينافارقين وبمصر.

وتوفي بعيذاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب السعدي، أخو القاضي الجليس، رحل فسمع ببغداد وغيرها، وصنف كتاب مساوىء الخمر، وكتاب الحجّة لسلف هذه الأمة في تسمية الصديق والردّ على من أنكر ذلك، وكتاب تهذيب المقتبس في أبناء أهل الأندلس. وكان من الصالحين.

وتوفي أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوار بن المختار بن الغرناطي

بمصر، وكان من أعيان غرناطة، وله معرفة جيدة بالنحو، وكتب عن السلفي.

سنة ست وخمسين وخمسةائة

فيها عقد العاضد على ابنة الصالح ابن رزيك في مستهله بعدما امتنع من ذلك فحبسه الصالح حتى أجاب، وقصد الصالح بزواجه ابنته أن يرزق منه ولداً فيجتمع لبني رزيك الخلافة مع الملك.

وفيها قدم محمد بن حسين بن نزار بن المستنصر إلى برقة من بلاد المغرب، ودعا إلى نفسه، فاجتمع عليه قوم كثير وتلقب بالمستنصر؛ وعزم على المسير إلى أخذ القاهرة، فخدعه الأمير حسام ابن فضة ووعدته بالقيام بدعوته، ومازال يتلطف به حتى صار عنده في خيمته، فقبض عليه وحمله إلى القاهرة، فقتل في شهر رمضان.

وفيها قتل الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، أبو الغارات طلائع بن رزيك، وذلك أنه لما ثقلت وطأته وكثرت مضايقته لأهل القصر، أخذت السيدة العمة ست القصور، وهي أخت الظافر الصغرى، في العمل على قتله، ورتبت مع قوم من السودان الأقوياء أن يقيموا منهم في باب السرداب من الدهليز المظلم الذي يدخل منه إلى القاعة جماعة، ويقيموا آخرين في خزانة هناك وأرسلت إلى ابن الراعي، وإلى الأمير (المعظم) بن قوام الدولة صاحب الباب وقررت معه أن يخلي الدهاليز من الناس حتى لا يبقى بها أحد. فأعدوا في حجرة في دهليز القصر، وردوا عليهم طرف الضبة .

فلما كان في يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رمضان ركب الصالح على عادته للسلام على الخليفة، فلما انفصل من خدمة السلام بقاعة

الذهب وخرج إلى الدهاليز عرض له أستاذ يقال له عنبر الريفي، وأوقفه، وذكر له حديثاً طويلاً؛ فتقدم رزيك ابن الصالح، فخرج رجلان وثبا على الصالح، ووقعت الصيحة، فعثر الصالح بأذياله، فتقدم إليه ابن الراعي وطعنه بسيف قطع أحد وريديه، وضربه العبيد بالسيوف فقطعوا عذبتة ونزلت في لحمه وشلت سلسلة ظهره. فوضع يده على جرحه وأنشد:

إن كان عندك يا زمان بقية

مما تهين به الكرام فهاتها

وضرب رزيك في عضده الأيمن. وتكاثروا على الصالح فسقط على وجهه منكباً وتقياً بالدم فأدركه الأمير ابن الزيد وألبسه منديل ضرغام ابن سوار، وكان قد نزع منديله عن رأسه، وحمل حتى أركب على فرسه، وهو لا يفيق، وبقي حسين ابن أبي الهيجاء في القصر يقاتل السودان حتى قتل منهم خمسين رجلاً.

ولما ركب الصالح وشدوا جرحه تطلعت السيدة العمة من القصور فرأته راكباً، فقالت: رحنا والله، فلما صار إلى داره كان إذا أفاق يقول: رحمك الله يا عباس، وبعث إلى العاضد يعتب عليه كيف رضي بقتله مع حسن أثره في إقامته خليفة؛ فأقسم أنه لم يعلم بذلك ولا رضي به. وأنشد عند موته:

وما ظفروا لما قتلت بطائل

فعثت سعي دأثم مت شهيداً

فلما كان ثلث ليلة الثلاثاء، العشرين من شهر رمضان، مات ودفن بالقاهرة، ثم نقل منها بعد ذلك إلى القرافة، والعاضد راكب والجند يمشون خلف تابوته.

ومولده في سنة خمس وتسعين، وكانت وزارته سبع سنين وستة أشهر

تنقص أياماً، وكان فاضلاً، سمحاً في العطاء، سهلاً في اللقاء، محباً لأهل الفضائل، جيد الشعر وخطه دون شعره. يقال إنه من المغرب، وقد قصد أبوه زيارة قبر علي بن أبي طالب بالنجف فرأى أمام المشهد علياً وأخبره عن طلائع أنه يلي مصر، فقدمها، وما يزال يترقى في الخدم حتى نال مانال.

وأُنشد له ابن خلكان:
كم ذابرينا الدهر من أحداثه
غيراً وفينا الصدد والإعراض
نسئ المات وليس يجري ذكره
فينا، فتذكرنا به الأمراض

وكان لأهل العلم عنده نفاق، ويرسل إليهم العطايا الكثيرة. بلغه أن أبا محمد ابن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتاً من شعره وهو:

تجنب سمعي ما يقول العواذل
وأصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز له هدية سنوية ليرسلها إليه، فقتل قبل إرسالها، وبلغه أن إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه فأرسل كتاباً يشكره، ومعه هدية.

وكان وافر العقل رضي النفس، بصيراً بالتجارب عالماً بأيام الناس، بصيراً بالعلوم الأدبية، محبباً إلى الناس لإظهاره الفضل والدين وإنكاره الظلم والفساد. إلا أنه كان من غلاة الإمامية مخالفاً لما عليه مذهب العاضد وأهل الدولة. فلما بايع للعاضد وركب من القصر سمع ضجة عظيمة، فقال: ما الخبر؟ فقليل إنهم يفرحون بالخليفة، فقال: كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا؛ وما علموا أنني كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم.

وجرى من بعض الأمراء في مجلس السمر عنده انتقاص بعض السلف، وكان الفقيه عمارة جالساً فقام وخرج معتذراً بحصاة تعتاده، وانقطع في منزله ثلاثة أيام، ورسول الصالح يرد إليه كل يوم بالطبيب، ثم ركب إليه بعد ذلك وهو في البستان مع جلسائه في خلوة، فاستوحش من غيبته، فأعلمه أنه لم يكن به وجع ولكنه كره ما جرى في حق السلف، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت وإلا كان في الأرض سعة وفي الملوك كثرة. فعجب الصالح من ذلك، وقال: سألتك بالله ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ فقال: أعتقد أنه لولاها لم تبق للإسلام حرمة ولا علا له راية، وما من مسلم إلا ومحبته واجبة عليه. ثم قرأ: « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه (١٣٩) » فضحك الصالح، وكان هذا من رياضته، فإنه مخالف لمذهبه مخالفة لا يحتملها مثله إلا كان مرتاضاً حصيفاً قد لقي الفقهاء وسمع كلامهم.

وبعث يوماً إلى عمارة ثلاثة أكياس من مال ورقعة بخطه فيها هذه الأبيات يدعوه فيها إلى مذهبه:
قل للفقيه عمارة: يا خير من
أضحى يؤلف خطبة وكتاباً
اسمع نصيحة من دعاك إلى الهدى
قل حطة، وادخل إلينا الباباً
تلق الأئمة شافعين، ولا تجدد
إلا ديننا سنة وكتاباً
وعلي أن يعلمو محللك في السورى
وإذا شفعت إلي كنت مجاباً
وتعجل الآلاف، وهي ثلاثة
صلة، وحقك لا تعدثوا بها (١٤٠)

فأجابه عمارة:

حاشاك من هذا الخطاب خطابا
ياخير أملاك الزمان نصابا
لكن إذ ما أفسدت علماءؤكم
مغمور معتقدي وصار خرابا
ودعوتهم فكري إلى أقوالكم
من بعد ذلك، أطاعكم وأجابا
فاشدد يديك على صفاء محبتي
وامنن علي، وسدهذا البابا.

وهو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة؛ ووقف ثلثي المقس على
الأشرف، وتسعة قراريط على أشرف المدينة، وقيراطاً على بني معصوم
إمام مشهد علي الذي بشره بالنام. ويقال إنه من ولد جبلة بن الأيهم
الغساني.

وكان أبوه يسمى رزيك وقدم مع أمير الجيوش بدر إلى مصر؛ وتوفي
سنة إحدى وثلاثين وخمسةائة.

ومن العجب أنه ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر،
وزالت دولتهم في التاسع عشر. وهو أول من خوطب بالملك في ديار
مصر ونعت به.

ومن عجيب الاتفاق أن عمارة أنشد مجد الإسلام رزيك بن الصالح
بذار سعيد السعداء في ليلة السادس عشر من شهر رمضان أبياتاً منها:
أبوك الذي تسطو الليالي بحده
وأنت يمين إن سطا، وشمال
لرتبته العظمى، وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل
تحالسك اللحظ المصون، ودونها
حساب شريف لانقضي وحجال

فانتقل الملك إليه بعد ثلاثة أيام.

قال عمارة: ودخلت على الصالح قبل قتله بثلاثة أيام، فناولني رقعة فيها بيتان من شعره وهما:

نحنن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظان لانة لاتنام
قد رحلنا إلى الحمام سنيناً
ليت شعري، متى يكون الحمام (١٤١)

فكان آخر عهدي به.

ومما رثاه عمارة به قوله:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني، لما بي، ذاهب العقل ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه، ويخرس قائله
فقد را بنبي من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوباً ومافيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولم لا نبكيه وننذب فقده
وأولادنا أيتامه وأرامله
أيكرم مشوى ضيفكم وغريبكم
فيسكن، أم تطوى بين مراحلته
فيا ليت شعري بعد حسن فعاله
وقد غاب عنا، ما بنا الدهر فاعله

قال عمارة: وكانت أحوال الصالح تارة له وتارة عليه؛ فما هو عليه فرط العصبية في المذهب، وجمع المال واحتجانه، والميل على الجند

وإضعافهم والقصص من أطرافهم. وأما التي له فلم تكن مجالس أنسه تنقضي إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. وكان مرتاضاً قد سمر أطراف المعالي وتميز عن أخلاق الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة.

وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، ويكثر من جلسه، ويبسط من أنيسه. وكان كرمه أقرب من الجزيل منه إلى الهزيل وصنف كتاباً سماه: «الاعتماد في الرد على أهل العناد». وله قصيدة سماها: الجوهريّة في الرد على القدرية.

ولما مات الصالح خرج ولده الناصر وهو مجروح وجلس في مرتبة أبيه، وبعث إلى العمة ست القصور من أهل القصور، فسلمت إليه، فخنقها بمنديل ورميت قدامه، فبعثت السيدة العمة أختها إلى سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء، صهر الصالح، وحلفت له أنها لم تدر بما جرى على الصالح وأن فاعل ذلك أصحاب أختها المقتولة، وحضر إليها مجد الإسلام أبو شجاع رزيق بن الصالح فخلع عليه للوزارة، فإن الصالح أوصى بها إليه وجعل من حسين بن أبي الهيجاء الكردي مدبر أمره، ونعت بالسيد الأجل مجد الإسلام الملك العادل الناصر أمير الجيوش؛ وفسح له في أخذ من ارتاب به في قتل أبيه، فأخذ ابن قوام الدولة وقتله وولده والأستاذ الذي شغل الصالح بالحديث.

واستحسن الناس سيرته، وسامح الناس بما عليهم من البواقي الثابتة في الدواوين. وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة، وقام عن الحاج بما يستأديه منهم أمير الحرمين؛ وسير على يد الأمير محمد بن شمس الخلافة نحو من خمسة عشر ألف دينار إلى قاسم بن هاشم، أمير الحرمين، برسم إطلاق الحاج. وظفر بقتلة أبيه ظفراً عجبياً بعد تشتتهم في البلاد.

وكان زفاف أخته إلى العاضد في وزارته فحمل معها بيوت الأموال.
ونقل تابوت أبيه إلى القرافة.

وسير إلى والي الإسكندرية بحمل عبد الرحيم بن علي البيساني،
الملقب بالقاضي الفاضل، واستخدمه بين يديه في ديوان الجيش.

وترامت الحال في أيامه بالأمر عز الدين حسام، قريبه، وعظم صيته،
واستولى على تدبير كثير من أموره، وعظم غلمان أبيه. وكان فارساً
شجاعاً، له مواقف معروفة.

وكان أبوه الصالح قد ولي شاور بن مجير بن نزار السعدي قوص، ثم
ندم على ولايته وأراد عوده من الطريق، ففاته، وحصل بها؛ وطلب منه
في كل شهر أربعمئة دينار، وقال لا بد لقوص من وال، وأنا والله لا
أدخل القاهرة، ومتى صرفني دخلت النوبة. فتركه. ولما جرح وأشرف على
الوفاة كان يعد لنفسه ثلاث غلطات: إحداها ولاية شاور الصعيد الأعلى
والثانية بناء الجامع على باب زويلة، فإنه مضرة على القاهرة، والثالثة
خروجي بالعساكر إلى بلييس وتأخيري إرسالها إلى بلاد الفرنج؛ وكان قد
أنفق على هذه العساكر مائتي ألف دينار.

وأوصى ابنه رزيك ألا يتعرض لشاور بمساءة، ولا يغير عليه حاله
فإنه « لا تأمن عصيانه والخروج عليك. » فلما استمر رزيك بن الصالح
في الوزارة حسنت له بطانته صرف شاور عن قوص ليم الأمر له، وأشار
عليه سيف الدين حسين أبي الهيجاء بإبقائه، فقال: ما أنا أبي ولا لي
طمع فيما أخذه منه ولكن أريده يطأ بساطي. فقبل له: ما يدخل أبداً
فلم يقبل، وخلع على الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة بولاية
قوص.

فيها خرج ملك النوبة إلى أسوان في اثني عشر ألف فارس وقتل من المسلمين عالماً عظيماً.

فيها مات بالقاهرة ، في يوم الأربعاء لاثني عشرة خلت من رجب ، القاضي أبو الحجاج يوسف بن عبد الجبار بن شبل بن علي الصويبي ، وصويب قبيلة من جذام . ولد بالقدس يوم الجمعة تاسع ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وقدم مصر بعد أخذ الفرنج القدس فنشأ بها واشتغل بالعلم ، وتولى خزانة الكتب في سنة أربع وعشرين وخمسائة ، وولي قضاء فوة وعملها في محرم سنة سبع وأربعين .

ومات بالصعيد كنز الدولة أبو الطليق يوسف ، وولي بعده رئاسة قبائله أخوه أبو العز فتوح في حادي عشر محرم .

سنة سبع وخمسين وخمسائة

في عاشر المحرم أفرج العادل رزيك عن الأمراء الذين اعتقلهم أبوه الصالح بن رزيك في ثالث عشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين ، وهم صبح بن شاهنشاه ، وأسد الغاوى ومرتفع الطواس .

وفيها شاد الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية فعرف ببرج ضرغام .

وفي آخر ذي القعدة ورد الخبر بخروج شاور عن طاعة العادل رزيك ، وذلك أن الأمير نصير الدين لما خلع عليه بولاية قوص كتب على يده كتاباً إلى شاور بتسليم البلاد إليه وحضوره إلى القاهرة ، فلما وصل إلى إخميم كتب كتاباً إلى شاور وفي طيه كتاب رزيك ، فلما وقف عليه بعث إليه أن أرجع ولا تحضر ، قولاً واحداً ، فرجع إلى القاهرة وجهر شاور بالعصيان (١٤٢) .

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها زالت دولة بني رزيك. وذلك أن ممالك الصالح وغلمايه، مثل يانس وورد وسعادة الأسود وبختيار، اشتد ظلمهم؛ وكان الصالح قد قدمهم حتى صار لكل منهم نحو المائتي مملوك، وطغوا في أيام رزيك حتى ضج الناس منهم. وقال بعضهم:
أمتهم يابني رزيك جهلاً
فذاك الأمر يتبعه الأمان
أباد الله دولتكم سريعاً
فقد ثقلت على كنف الزمان

وكان شاور بن مجير السعدي لما بلغه أن الناصر رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك عزله عن ولاية قوص وولى غيره اضطرب وخرج من قوص في جماعة قليلة، فسار على طريق الواحات في البراري حتى صار في تروجة، فاجتمع عليه الناس وقوي أمره وتزايد. فاهتم لذلك رزيك ورأى في منامه وكأنه قد صار رواسا في حانوت؛ فلما قص هذه الرؤيا على حسين بن أبي الهيجاء نظر عابراً، كان بمصر حاذقاً، يعرف بابن الأرتاحي، وأخبره بما رأى، فغالطه في التفسير، وفهم ذلك حسين، فلما خرج ألزمه أن يصدقه بتأويل ما رآه رزيك، فقال يامولاي القمر عندنا هو الوزير كما أن الشمس الخليفة، والخنش المستدير عليه حبس مصحف، وكونه رواساً أقلبها تجدها شاوراً مصحفاً؛ وما وقع لي غير هذا، فقال: اكنم هذا عن الناس، وأخذ حسين يحتاط لنفسه، وتجهز إلى الحجاز.

فكثرت الإرجاف بمسير شاور إلى أن قرب من القاهرة. فوقع الصائح في بني رزيك، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس، فأسرع ضرغام ونظراؤه من وجوه الأمراء، وهم إخوته: ملهم وحسام وهمام، ويحيى بن الخياط

وبنو الحاجب ونظراؤهم، وصاروا إلى شاور فأسقط في أيدي العسكر الباقي مع بني رزيك.

وكان أول من نجا بنفسه حسين بن أبي الهيجاء، خرج فاراً ومعه حسام إلى الحوف واستجار بطريف بن مكنون أحد أمراء جذام، فأجاره وحمله من أيلة في البحر إلى المدينة النبوية، فجاور بها مدة ومات ، فدفن بالبقيع.

ولما فر حسين فت ذلك في عضد رزيك ولم يثبت ، وخرج رزيك من القاهرة في نصف المحرم ومعه جماعة من غلمانة وعدة بغال موقرة من المال والجواهر والثياب الخاص. وتحير فلم يدر أين يذهب، فوقع بظاهر إطفيح عند مقدم العرب سليمان بن الفيض، فأخذه وكل ما معه.

ودخل أبو شجاع شاور إلى القاهرة ومعه خلق كثير، ومعه أولاده: طي: وشجاع، والطاري، فنزل دار سعيد السعداء، وأحضر إليه ابن الفيض رزيك مكبلاً، فاعتقله وأخاه جلال الإسلام. فبعث جلال الإسلام إلى من أعلم شاوراً أن أخاه طلب مبرداً من بعض غلمان أبيه ويرد القيد الذي في رجله ليهرب، فدخلوا إليه وقتلوه. ومولده في ذي القعدة سنة ثلاث، أو اثنتين، وخمسة. وأنفقوا على أخيه لهذه النصيحة، وبقي من جملة أرباب الإقطاع إلى أن مات، وقيل إن هذا كان من فعلات طي بن شاور ونميته حتى قتل العادل.

وكان سليمان بن الفيض من لحم، وهو ممن أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك وخوله في نعم جمّة ، فلم يرع عهده ، وقبض على ابنه العادل وأسلمه لشاور، ونهب أصحابه ماله، فلما قدم به عليه قال: ياسليان ، لقد خباك الصالح ذخيرة لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا الآخر أخبتك ذخيرة لولدي . ثم أمر به فشنق.

وانقطع بنو رزيك ، وبزواهم زالت الدولة، فكانت مدة بني رزيك في الوزارة تسع سنين وشهراً وأياماً.

وكان دخول شاور إلى القاهرة ووزارته في يوم الأحد ثاني عشري المحرم، ولما استقر في الوزارة تلقب بأمر الجيوش. واثالث عليه وعلى ولده طي أموال بني رزيك وودائعهم من عند الناس ، حتى كان في الناس من يتبرع بما عنده، فظفر هو من أموالهم - سوى السلاح والكرع وغيره، وسوى ما أخذه أولاده - بما ينيف عن خمسمائة ألف دينار عينا. فبعث بذلك كله مع جميع ما أدخل إليه إلى العربان، وأودعه عندهم وأنعم عليهم حتى كثرت أموالهم وصاروا يكيلونها كيلا ويقولون: لفلان قدحان ذهباً ولفلان ثلاثة أقداح. وزاد تمكنهم له حتى لم يكونوا يفارقون باب الفتوح وباب النصر؛ ونهبوا غلات الحوف، واستخفوا بالمقطعين؛ فلم ينكر عليهم وأراد أن يكونوا له عضداً ورداً.

وكان الصالح بن رزيك قد قرر للفرنج في كل سنة على مصر ثلاثة وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم، فوافقت رسلهم تطلب ذلك، ولما قتل رزيك بن الصالح في رمضان قدمت رأسه في طشت إلى شاور وهو بدار الوزارة، فقال في ذلك الفقيه عمارة:

أعز علي أباشجاع أن أرى

ذاك الجبين مضر جابدمائه

ما قلبته سوى رجالي قلبوا

أيديهم من قبل في نعمائه

وجلس شاور بعد قتل الناصر رزيك بن الصالح بدار الذهب، وقام الشعراء والخطباء ولفيف الناس إلا الأقل ينالون من بني رزيك، وفيهم ضرغام نائب الباب، ويحيى بن الخياط أسفسهلار العسكر، وغيره؛ فقال عمارة:

زالت ليالي بني رزيك وانصرفت
والحمد والندم فيها غير منصرم
كان صالحهم يوماً وعاد لهم
في صدر ذاللدست لم يقعد ولم يقيم
هم حركوها عليهم وهي ساكنة
والسلم قد تنبت الأوراق في السلم
كناظن، وبعض الظن مائمة
بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم
من كان مجتمعا في ذلك الرخم
ولم يكونوا أعدوا ذل جانبه
وإنما غرقوا من سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
تعظيم شأنك، فاعذرني ولا تلم
ولو شكرت لياليهم محافظةً
لعهدهم لم تكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوماً بدمهم
لم يرض فضلك إلا أن يسد فمي
والله يأمربالإحسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

فشكر شاور عمارة على الوفاء لبني رزيك ، ونقم عليه ضرغام قوله « فمذ وقعت » البيت ، وكان يقول له: نحن عندك من الرخم.

ثم أن شاور جهز الخلع إلى العادل نور الدين بالشام، فلبسها يوم الأثنين ثاني عشرين رمضان، وقبض المال المسير إليه.

وكتب للأجناد والعرب وحواشي القصر من الرواتب والزيادات نظير ما لهم عشر مرات، وهو غير ظاهر للناس والأبواب مغلقة عليه خيفة. وذلك أن الصالح بن رزيك كان قد أنشأ أمراء يقال لهم البرقية، وجعل ضرغام بن عامر بن سوار المذكور الملقب أبا الأشبال فارس المسلمين مقدمهم، ثم صار صاحب الباب، فطمع في شاور، وكان فارساً كاتباً، فجمع رفقته، وتحوف منه شاور، وصار العسكر فرقتين: ضرغام ومن معه فرقة، وحرب ومن معه حزب. فأما ضرغام فأظهر المباينة، وأما نظرائه فاختصوا بطي بن شاور وكاثروه ولازموه. فلما كان بعد تسعة أشهر من وزارته ثار به ضرغام يوم الجمعة ثامن عشرين رمضان وقد جمع له، وكانت بينهما وقعة قتل فيها طي بن شاور، وهو أكبر أولاده، وقتل أخوه سليمان الطاري وهو الأصغر، وأسر الكامل فاعتقله ملهم ومنع منه أخاه ضرغاماً ليدي كانت له عنده. وكان بين قتل طي بن شاور وقتل العادل رزيك نيف وثلاثون يوماً.

وخرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل رضوان بن ولخشي، وقد كان رفيقاً له إذ ذاك، وذلك أول شوال، فنهبت داره ودور أولاده وحواشيه، وذهب جميع ما نالوه من مال بني رزيك. وقتل الكامل علي بين القصرين وتركت جثته يومين ملقاةً معه ابن أخته وحسان تربية شاور. فكانت وزارته تسعة أشهر.

وكانت أخلاق شاور في وزارته هذه مستورة باستمرار العافية والسلامة، ولم يكن فيها أقبح من قتل رزيك بن الصالح فإنها أعربت عن ضيق عطنه وخرج صدره. وكان كرمه إليه المنتهى، وشدة بأسه في مواطن الحرب شهيرة، وكان شديد الثبات كثير الوثبات. ومما نقم عليه

أن ابنه الكامل عمل مظلة كانت تحمل على رأسه، وتحكم على أبيه، وترفع على الأمراء وعسفهم.

ولما فر شاور ونزل بفاقوس عند بني منصور استولى ضرغام على الوزارة وتلقب بالملك المنصور. في سابع عشرين رمضان، فشكر الناس سيرته، فإنه كان فارس عصره، كاتباً، جميل الصورة، فكه المحاضرة، عاقلاً كريماً، لا يضع كرمه إلا في سمعة ترفعه أو مداراة تتبعه. إلا أنه كان أذناً متخيلاً على أصحابه، وإذا ظن بإنسان شراً جعل الشك يقيناً. وكان في وزارته مغلوباً مع أخويه: ناصر الدين همام وفخر الدين حسام.

وقيل إن ملهماً وضرغاماً لما علما تغير الناس على شاور وأولاده أخذوا في مراسلة رزيك في سجنه وإفساد الناس له؛ فبلغ الخبر طي بن شاور، فدخل إليه وقال: بلغني أن ملهماً وضرغاماً قد تحداً لرزيك في الأمر وقد حلفاً له جماعة من الأمراء، وأنت غافل عن هذا الأمر. فقال له شاور: اسكن ولا تعجل؛ أنا أكشف عن هذا، فإذا تحققت حسمته. فقال: لا غنى بي عن قتل رزيك فإني إذا قتله أمنت. فقال له شاور: لا يمكن قتله فإنه أولاني جميلاً بسببه صرت في هذا المحل، فمضى طي إلى رزيك وقتله، فقامت قيامة شاور، وبلغ ذلك ضرغاماً فثار وأثار من خلفه وقرر معهم أمر رزيك وزحف بهم، فانهزم شاور. فكان في هذه السنة ثلاثة من الوزراء هم: رزيك بن الصالح بن رزيك، وأمير الجيوش شاور، والمنصور ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي أبو الأشبال.

وفيها اختلت الدولة وضعفت بذهاب أمرائها وأولي الرأي فيها.

فيها سار الفرنج إلى ديار مصر فوصلوا إلى السدير، وورد الخبر في ثاني شوال بوصولهم إلى فاقوس، فأخرج إليهم ضرغام أخاه ناصر المسلمين هماماً، وكان شجاعاً، فالتقى معهم وحاربهم، فهزموه بعد أن قتل منهم خلقاً، وكان شاور قد انضم إلى بني منصور لأنه من فخذهم، وكان

قائماً على كوم عال. ثم إن الفرنج صاروا إلى حصن بلبيس في شوال وملكوا بعض السور، فردهم عنه همام وبنو كنانة. وتفرق العسكر إلى الحوف فقال العرب: هؤلاء وقد انهزموا من الفرنج فقتلوا كل من ظفروا به. وعاد العسكر وقد قتل منهم العرب عدة، ورجع الفرنج إلى بلاد الساحل بمن أسروه من المسلمين وفيهم القطوري من أكابر الأمراء.

فلما صار همام بالقاهرة صار كأنه مشارك لأخيه في الوزارة، كل منهما يوقع ويقطع، ولم يظفر ضرغام من المال بكبير شيء فإنه نهب.

وفيه ولي الوزير ضرغام الأمير مرتفع الخلواص الإسكندرية برجاء إبعاده عنه، فلما صار إليها ظفر بقوم رتبهم ضرغام لقتاله، فتأكدت الوحشة بينهما، وجمع لمحاربة ضرغام وخرج من الإسكندرية فكتم ذلك.

وفيه قدم شاور دمشق في ذي القعدة وترامى على نور الدين، فبعث الوزير ضرغام إليه بعلم الملك ابن النحاس بأن يقبض على شاور، فأجاب في الظاهر وأضمر غير ذلك.

وفيهما قتل ضرغام عدة من الأمراء في دعوة جمعهم فيها، وأعد لهم من خرج على الجميع وقتلهم في داره.

وكان قاع النيل خمس أذرع وثلاث عشرة إصبعاً، وبلغ أربع عشرة ذراعاً وثمانين أصابعاً.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها وصل رسل الفرنج في طلب مال المدنة فمأطلمهم به ضرغام ودافعهم حتى شغل عنهم بقدم شاور.

وفي ثامن عشر ربيع الأول قبض ضرغام على صبح بن شاهنشاه عين الزمان وأسد الغالي وعلي بن الزيد في عدة تبلغ نحو السبعين من الأمراء سوى أتباعهم؛ وذلك أنه بلغه عنهم أنهم قد حسدوه واحتقروه وكتبوا شاوراً ووعدوه القيام معه. ثم أخرجهم ليلاً وضرب أعناقهم؛ فاختلفت الدولة بقتل رجالها وذهاب فرسانها.

وفيها وجه ضرغام بأخيه ناصر الدين همام على طائفة من العسكر لقتال الأمير مرتفع بن مخلي المعروف بالخلواص، متولي الإسكندرية، وقد جمع وسار، فعندما بلغ من معه من العربان قتل الأمراء البرقية فتراوا عن القيام معه وطمعوا فيه، ووثب به قوم من بني سنبس وقبضوا عليه، وأتوا به إلى همام، فقدم به إلى القاهرة، فضرب ضرغام عنقه يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر، وصلبه على باب زويلة؛ فنفرت القلوب من ضرغام وكان شاور قد وصل في ثالث عشرين ذي القعدة من السنة الماضية إلى دمشق مترامياً على السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، مستجيراً به على ضرغام، فأكرم مثواه وأحسن إليه، فتحدث مع السلطان في أن يرسل معه العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر، ويتصرف هو بأوامر نور الدين واختياره، فبقي نور الدين يقدم إلى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يقصد رعاية شاور كونه التجأ إليه وكون ما قاله زيادة ملكه وتقوية له على الفرنج، وتارة يخشى خطر الطريق وكون الفرنج فيه ويخاف من شاور أنه إذا استقرت قدمه في مصر خاس في قوله ويخلف بما وعد. ثم قوي عزمه على إرسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها وإزاحة عائلها.

واتفق أن الواعظ زين الدين بن نجا الأنصاري، سمع بسعة أرزاق مصر فقدم إليها في وزارة الصالح بن رزيك، فأقبل عليه وحصل له من إنعامه ومما أخذه له من العاضد في ثلاث سنين ما يناهز عشرين ألفاً

دينار، وسوغه عدة دور بتوقيع . فسمع بالزاهد أبي عمرو بن مرزوق يتحدث الناس عنه بأنه مهما قاله لهم وقع، وأنه يركب كل سنة في نصف شعبان حماراً له ويأتي معه جماعة إلى ذيل الجبل ويودعونه ويمضون، فيطلع أبو عمرو إلى الجبل، ويلقاه الناس في الليلة الثانية ويجتمعون كاجتماعهم للعيد، ويركب حماره، والناس تحته، ويتنظر ، وينزل بعد صلاة المغرب إلى مسجده فقصد زيارته وقد تجمع الناس في الأسطحة والدكاكين والطرقات، والشيخ يعمل الميعاد، فوصل إليه وأقام حتى انفض الناس، فخلا به وتعرف إليه، فكان مما قال له: أتعرف بالشام أحداً يقال له شيركوه، فقال: نعم ، أمير من أمراء نور الدين، فقال: هذا يأتي إلى هذه البلاد ويملكها، وكل ما تراه من هذه الدولة يزول حتى لا يبقى له أثر عن قريب. وانصرف ابن نجا عن الشيخ أبي عمرو وقد تعجب من قوله.

فلما قضى أربه من القاهرة وعاد إلى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين وحكى له قول الشيخ أبي عمرو؛ فقال له: لا تخبر أحداً بذلك. ومضى اليوم وما بعده، إلى أن قدم شاور على السلطان نور الدين وقوى عزمه على تجهيز العساكر معه، فوقع اختيار السلطان على الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان، أحد أمرائه، فاستدعاه من حلب، فوصل إلى دمشق مستهل رجب منها، وأمره بالمسير إلى مصر مع العساكر صحبة شاور، فامتنع وقال: لأمشي بألف فارس، إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة شيني فيها عشرة آلاف مقاتل وعندهم أربعون ألف عبد لخمس خلفاء، وهم مستوطنون في أوطانهم قريبة منهم خزائهم، ونأتي نحن من تعب السفر بهذه العدة القليلة، فتركه وأرسل إلى ابن نجا، فلما جاء قال له: حديث الرجل الزاهد الذي بمصر أخبرت به أحداً؟ فقال: معاذ الله؛ والله ما سمعه مني أحد سوى السلطان. فقال: امض إلى أسد الدين شيركوه واحك له الخبر، فمضى إلى شيركوه وقص عليه الحديث بنصه، فطابت نفسه للسفر.

وسار العسكر وصحبته شاور يوم الاثنين خامس عشر جمادى الأولى ، وقد أمر نور الدين شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه ويبتقم له بمن نازعه فيه، وخرج نور الدين إلى أطراف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكر ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين، فكان قصارى أمر الفرنج أن يمتنعوا من نور الدين ويحفظوا بلادهم.

وأخذ شيركوه في سيره إلى مصر على شرقي الشوبك حتى نزل أيلة، وسار منها إلى السويس، فلم يدر ضرغام، وقد وصل إليه رسل الفرنج في طلب مال الهدنة المقرر لهم في كل سنة على أهل مصر وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار وهو يدافعهم ويماطلون، إلا بطيور البطائق قد سقطت من عند أخيه الأمير حسام الدين، متولي بلبس، في يوم الأحد خامس عشرين جمادى الأولى، يخبر فيها بوصول شاور وأسد الدين شيركوه ومعهما من الأتراك خلق كثير، فانزعج وتأهب لتسيير العسكر، وأصبح الناس يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الأولى وقد شاع ذلك بينهم، فخافوا على أنفسهم وأموالهم وانتقلوا من مكان إلى مكان على عادتهم، وجمعوا عندهم الأقوات والماء.

وخرج الأمير ناصر المسلمين همام بالعساكر أول يوم من جمادى الآخرة، وهم نحو ستة آلاف فارس بالخيول المسومة والدروع الثمينة والسلاح العجيب، وقد أعجبوا بأنفسهم واطمأنوا بأنهم ظافرون، فوصلوا إلى بلبس يوم الأحد ثانيه، فوافاهم شاور بالعسكر الشامي يوم الاثنين، فباتوا ليلة الثلاثاء، وأصبحوا وقد توهم منهم أسد الدين شيركوه وقال لشاور: يا هذا لقد غررتنا وقلت إنه ليس بمصر عساكر حتى جئنا بهذه الشزيمة؟ فقال: لايهولنك ما تشاهد من هذه الجموع فأكثرها حاكه وفلاحون يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمى الوطيس وكلبت الحرب، وأما الأمراء فإن كتبهم وعهودهم معي، وسترى إذا التقينا، لكني أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد.

فلما ترتبوا نهاهم عن القتال، فتحرك المصريون وتأهبوا وأقاموا حتى
حامي النهار، فسخن عليهم الحديد ولم يروا أحداً يسير إليهم فنزلوا عن
خيولهم وأقاموا الخيم، وألقى بعضهم السلاح، فلما عاين ذلك شاور أمر
بالحملة عليهم، فثار المصريون وحمل ناصر المسلمين همام والأمير فارس
المسلمين حسام على العسكر الشامي، فجرح همام والتفت فلم ير أحداً
من عسكره، فكان أشجعهم من يصير على ظهر فرسه، وانهمزوا بأجمعهم
إلى بليس، وغنم العسكر الشامي جميع ما كان معهم، فقبضوا به،
وتبعوهم وأسروا منهم جماعة الأمراء وغيرهم، ثم منوا عليهم وصير وهم في
جملتهم.

ولحق الأمير همام بالقاهرة سحر يوم الأربعاء خامسه وهو مجروح،
واختفى الأمير حسام في مدينة بليس فدل عليه بعض الكنانية فأسر
وقيد.

وسار العسكر فوصلوا إلى القاهرة بكرة يوم الخميس سادسه، فنزلوا
عند التاج بظاهر القاهرة، وانتشر العسكر في البلاد يريدون الأكل
والعلف

وكان ضرغام قد كاتب أهل الأعمال فوصلوا إليه لخوفهم من الترك،
فضمهم إليه ومعهم الریحانية والجیوشية وجعلهم في داخل القاهرة، فأقام
شاور بمن معه على التاج حتى استراحت خيولهم، ثم إنه استحلف
شركوه ومن معه أنهم لا يغدرون به ولا يسلمونه، ولا ينهمزون إلا عن
غلبة. ومع هذا فإن طوائف من العربان كانت تطارد عسكر ضرغام
بأرض الطبالة، وخرج أهل منية السريح فقتلوا من الترك جماعة، فمالوا
عليهم وانتهبوا المنية وأذاقوا أهلها نكالا شديداً، وأقام شاور بمن معه في
ناحية الخرقانية وشبرا دمنهور، ثم سار من ناحية المقس يريد القاهرة،
فخرج إليه عسكر ضرغام وحملوا عليه، فخاف من كان معه من الأمراء

الذين كانوا مع همام أخي ضرغام ولحقوا بالقاهرة فانهزم هزيمة قبيحة، فسر بذلك ضرغام، وأحضر قاضي القضاة وأمره بحمل ما في مودع الحكم من مال الأيتام، فحملها إليه.

وكان شاور لما انهزم سار إلى بركة الحبش وصار إلى الرصد فملك ما هنالك، وأخذ مدينة مصر وأقام بها أياماً، ولم يبق مع شاور وشيركوه من الأمراء الذين كانوا مع همام سوى شمس الخلافة محمد وأولاد سيف الملك الجمل وابن ناصر الدولة وأولاد حسن، فقيد شيركوه ابن شمس الخلافة دون الناس كلهم.

وكره الناس من ضرغام أخذه أموال الأيتام مع ما سبق منه من قتل الأمراء وغيرهم، وعلموا عجزه عن شاور.

وكان شاور يركب كل يوم في مصر ويؤمن أهلها ويمنع الأتراك من التعرض إليهم، فمال الناس إليه، وبلغهم عن ضرغام أنه يتوعدهم إذا ظفر بشاور أنه يحرق مصر على أهلها من أجل أنهم أمكنوا شاوراً من دخول البلد وباعوا عليه وعلى من معه، فتحول شاور عن مصر ونزل اللوق، وطارد خيل ضرغام وقد خلت المنصورة والهلالية وثبت أهل اليانسية فقاتل الناس قتالاً خفيفاً. وصار شاور وشيركوه إلى باب سعادة وباب القنطرة من أبواب القاهرة، وطرحوا النار في اللؤلؤة وما حولها من الدور. وكانت وقعة عظيمة بين الفريقين قتل فيها من العسكريين خلق كثير.

فلما كان الليل اجتمع مقدمو الريحانية وقد فني منهم كثير، وأرسلوا إلى شاور يطلبون الأمان - وكان قبل ذلك يبعث إليهم ويستميلهم - فأمنهم.

ولما رأى الخليفة العاضد انحلال أمر ضرغام بعث يأمر الرماة بالكف

عن الرمي، فخرج الرجال إلى شاور في الصباح، فسر بهم، وفترت همه أهل القاهرة، وأعمل كل منهم الحيلة في الخروج، وخرج ضرغام ومعه جماعة إلى خارج القاهرة، وجعلوا يترددون من باب إلى باب، وفيهم ابن ملهم وابن فرج الله وحازم بن أبي الخليل وجماعة مذكورون، فكانوا يطاردون من طاردهم، وأمر ضرغام بضرب البوقات والطبل على الأسوار ليجتمع الناس، فلم يخرج إليه أحد وانفل الناس عنه. فعاد إلى القاهرة وصار إلى باب الرحبة من أبواب القصر، ولم يبق معه سوى خمسمائة فارس، فوقف وطلب الخليفة أن يشرف عليهم من الطاق، فبلغ ذلك شاوراً فسرح في الحال ابنه سليمان الطاري إلى باب القنطرة ليملكه ويقف.

فلما طال وقوف ضرغام نادى: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد. فصاح: يامولانا كلمني، يامولانا أرني وجهك الكريم، يامولانا بحرمة أجدادك على الله، وهو يبكي فلم يجبه أحد، وقويت الشمس فصار إلى الظل حتى قرب الظهر، فأمر بعض غلمانه أن يركض في قسبة القاهرة ويقول بصوت عال: ما كانت إلا مكيدة على الرجال، قد قتل الترك أصحاب شاور الريحانية. فما هو إلا أن سمع الناس ذلك - وكانوا قد صاروا إلى بيوتهم - فأسرعوا إلى خيولهم وعادوا من كل جانب مثل السيل، فرأوا ضرغاماً على تلك الهيئة، والطاق لم يفتح له والخليفة لم يكلمه، فسقط في أيديهم وقالوا: ارجعوا فهي كذابة والغلبة لشاور، ورجعوا من حيث أتوا.

فوقف ضرغام إلى العصر ولم يبق معه غير ثلاثين فارساً، ووردت إليه رقعة فيها: خذ لنفسك وانج بها. فأيس من الظفر.

وبعث شاور إلى الخليفة العاضد يستأذنه في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، فبعث شاور يأمر ابنه أن يدخل القاهرة، وهو عند باب

القنطرة، فدخل وضربت أبوابه، وكانت من أبواب الترك التي لم تعهد بمصر، فما هو إلا أن علم به ضرغام، فمر على وجهه إلى باب زويلة، فتخطف الناس من معه، وعطعوا عليه ولعنوه، فأدركه بعض الشاميين في غلمان شاور وطعنه فأرداه، ونزل إليه واحتز رأسه بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، وذلك قريباً من الجسر الأعظم، في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، وفر ملهم إلى مسجد تبر، فقتل هناك وترك مطروحاً، وأتى برأسه إلى عند شاور، وقتل ناصر الدين أخو ضرغام عند بركة الفيل، وقتل فارس المسلمين. وبقي جسد ضرغام ملقى هناك يومين ثم حمل إلى القرافة فدفن بها.

وكان من الاتفاق العجيب أن ابن شاور قتل في يوم الجمعة حادي عشرين رمضان سنة ثمان وخمسين، فقتل ضرغام يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الآخرة سنة تسع، وقتل مع ابن شاور حسان ابن عمته فقتل مع ضرغام.... وكانت وزارة شاور الأولى تسعة أشهر ووزارة ضرغام بعده تسعة أشهر.

وكان من أعيان الأمراء وأحلى الفرسان، يجيد اللعب بالكرة والرمي بالسهام، ويكتب كتابة ابن مقله، وينظم الموشحات الجيدة، كريماً عاقلاً يحب العلماء والأدباء ويقربهم، إلا أنه سريع الاستمالة يميل مع من يستميله ولا يكذب خبراً عن عدو بل يعاقب سريعاً.

ولما جيء برأسه إلى شاور رفعت على قناة وطيف بها، فقال الفقيه
عمارة:

أرى حنك الوزارة صار سيفاً
يحب حده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى، وإلا
بشرب المنية والمصائب

فكان كما قال عمارة.

وأقام شاور وشيركوه بعد قتل ضرغام في مخيمهما بناحية المقس يومي السبت والأحد، فلما كان يوم الاثنين طلع الوزارة في ثالث شهر رجب، وخرج الكامل بن شاور من دار ملهم، أخي ضرغام، وكان معتقلاً بها، وخرج معه القاضي الفاضل، وكان معه في الاعتقال، وقد تأكدت بينهما مودة، فأدخله إلى أبيه ومدحه عنده وأثنى عليه، فسأه حينئذ بالقاضي الفاضل، وكان قبل ذلك ينعت بالقاضي الأسعد.

وفرّج العاضد بدخول شاور، ولما خلع عليه سار من القصر إلى باب زويلة، وخرج منه إلى باب القنطرة فنزل بدار الوزارة. وركب شيركوه إلى مصر ورأها، وقصد الفقهاء مثل الكيزاني وابن حيطه، واجتمع بالشيخ أبي عمرو بن مرزوق وأخبره كما أخبر ابن نجا أنه يملك الديار المصرية ويزيل هذه الدولة، لكنه لا يملكها إلا بعد أن يرجع إلى الشام ويأتيها ثانياً، ثم يرجع ويعود إليها ثالث مرة وحينئذ يملكها، وسأله عن بيت المقدس فقال: لا يكون فتحه على يدك وإنما يكون فتحه على يد بعض من في خدمتك من أقاربك، وهكذا جرى، فإن شيركوه لم يملك مصر إلا في مجيئه إلى القاهرة المرة الثالثة، ولم يفتح بيت المقدس إلا على يد صلاح الدين يوسف بن أخي شيركوه. (١٤٤)

وفي رابع رجب قرىء سجل شاور بالوزارة.

واستمر شيركوه في مخيمه ويخرج إليه في كل يوم عشرون طبقة من سائر الأطعمة ومائتا قنطار خبزاً ومائتا إردب شعيراً، وأعد له العاضد ملبوساً وسريراً مرصعاً بالجواهر له قيمة عظيمة كان الأمر قد عمله، وأمره بالدخول ليخلع عليه، فامتنع، وأرسل إلى شاور يقول: « قد طال مقامنا في الخيم وضجر العسكر من الحر والغبار»، ويستنجز منه ما وعد به السلطان نور الدين. فأرسل إليه ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله وحفظه، فبعث يقول له: إن الملك العادل نور الدين أوصاني

عند انفصالي عنه: « إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور والعسكر، والثلث الثالث لصاحب القصر يصرفه في مصالحه». فأنكر شاور ذلك وقال: إنها طلبت نجدة وإذا انقضى شغلي عادوا، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا أرضي نور الدين، فقال شيركوه: لا يمكنني مخالفة نور الدين ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره.

فأخذ شاور عند ذلك يستعد لمحاربة شيركوه، واستعد أيضاً شيركوه، وبعث بابن أخيه صلاح الدين بطائفة من الجيش يجمع الغلال والأتبان وغير ذلك ببلييس، فغلق شاور أبواب القاهرة، وتغلب صلاح الدين على الحوف، وبت خيله، وحاز الأموال والغلال، وتقدم إلى جزيرة قويسنا، فخرج ثلاثة من الأستاذين بأمر الخليفة إلى استنفار الناس من الصعيد، وثار ابن شاس، والي جزيرة قويسنا، على الترك وقتلهم حتى هزمهم وغرق منهم جماعة، فعاد صلاح الدين إلى عمه شيركوه، فتجهز ونزل بحري التاج.

وأخرج شاور خيمه وضربها في أرض الطبالة، فلما كان يوم الأربعاء الثالث والعشرون من شعبان التقى شاور وشيركوه في كوم الريش، فانكسر شاور إلى باب القنطرة ونهبت خيمه، وأسر أخوه صبح وجوهر المأموني، ودخل القاهرة فرمي بحجرٍ من باب القنطرة فدخل الكافوري مغشياً عليه.

وفي ذلك اليوم أحرق صف الخليج، وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة، وبقي الحصار إلى يوم الخميس تاسع رمضان، وورد الخبر إلى شاور بأن الفرنج قاربوا مدينة بلبيس يوم السبت حادي عشر رمضان فأقام عليها وشيركوه بها، ولما كان في خامس عشر ذي الحجة تقرر الحال مع شيركوه على أن يدفع إليه شاور خمسين ألف دينار ورهائن على صبح، أخي

شاور، وعاد إلى دمشق. ورجع الفرنج.

وقدم شاور إلى القاهرة في سادس عشر ذي الحجة، فكان مقامه على بلبس نيفاً وتسعين يوماً.

وأخرج شاور العساكر والحشود مما يلي البستان الكبير خارج باب الفتوح، وزحف شاور، فخرج إليه شيركوه وحاربه، فجرح أكثر عسكر شاور وغورت أعينهم، ووقعت نشابة في عين الطاري بن شاور، اليمنى، فبقي معه النصل مدة إلى أن قلعت وخرج منها بكلفة. فانهزم شاور ودخل القاهرة وأغلق أبوابها، وحاصره شيركوه طول النهار.

فلما كان الليل أحرق من باب سعادة إلى ناحية اللؤلؤة، كما فعل أولاً، واشتد الأمر، وصار كل من يخرج من عسكر مصر يقتل، فركب شاور وخرج ثم عاد وقد ازدحم الناس على السور لتنظر إلى الحرب، فسقطت شرفة من شرفات السور على رأس شاور وغشي عليه، ودخلوا به إلى الكافوري وقد أيس منه، فجاء رئيس الأطباء وعصر في أنفه حصرماً فأفاق. وأتاه الشراب من عند الخليفة فشربه وركب إلى داره وقد ورم وجهه.

واشتد قتال شيركوه على باب القنطرة وأحرق وجه الخليج جميعه، واحترقت الدور التي بجانبه من حارة زويلة، وانضم إليه بنو كنانة وكثير من عسكر المصريين، وبعث طائفة إلى حارة الریحانية وفتحوا ثغرة، فكان هناك قتال شديد. فجلس العاضد على باب الذهب وأمر بالخروج، فتسارع الصبيان وغيرهم إلى الثغرة وقاتلوا الترك والكنانية حتى أوصلوهم إلى منازلهم، وسدوا الثغرة.

وكان ضرغام عند قدوم شاور وشيركوه أرسل إلى الفرنج يستنجد بهم ويعددهم بزيادة القطيعة التي لهم، فامتنع ملكهم وقال: لانأتي إلا بأمر

الخليفة وأما من الوزراء فلا نقبل، فلما تحقق شاور أنه لا قبل له بشيركوه كتب إلى مري ملك الفرنج بالساحل يستنجده ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين من مصر، ويقول له: متى استقروا في البلاد قلعوك كما يريدون أن يفعلوا بي، وضمن له مالاً وعلفاً، ويقال إنه جعل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار، وسير إليه بذلك مع ظهير الدين بدران. فسر الفرنج بذلك وطمعوا في ملك مصر.

وخرج مري من عسقلان بجموعه فقبض عن مسيره سبعة وعشرين ألف دينار.

فلما بلغ ذلك شيركوه ارتحل عن القاهرة إلى بليس وبها ما أعد له ابن أخيه من الغلال وغيرها، وانضم معه الكنانية، فخرج شاور في عسكر مصر، فاجتمع بالفرنج وخيم على بليس وأحاط بها، فكانوا يغادون القتال ويراوحونه ثلاثة أشهر، وانقطعت الأخبار عن نور الدين، وبلغه مسير الفرنج إلى مصر.

وسار ملك القدس بجمع كثير ممن وصل لزيارة القدس مستعيناً بهم، فبينما الفرنج في محاصرة شيركوه إذ ورد عليهم أخذ نور الدين لحارم ومسيره إلى بانياس، فسقط في أيديهم وعولوا على الرجوع إلى بلادهم، فراسلوا شيركوه في طلب الصلح وعوده إلى الشام وتسليم ما بيده إلى المصريين. فأجاب إلى ذلك. وندب شاور الأمير شمس الخلافة محمد ابن مختار إلى شيركوه، فقرر معه الصلح على ثلاثين ألفاً أخرى فحملها إليه، وكانت الأقوات قد قلت عنده، وقتل من أصحابه جماعة، وأبطأت نجدة نور الدين فلم يأت منه أحد، وخرج من بليس أول ذي الحجة.

ومن قتل معه من أصحابه على بليس سيف الدين محمد بن برجوان، صاحب صرخد، بسهم أصابه، فأنشد وهو يجود بنفسه:

يامصر، ماكنت في بالي ولا خلدي
ولا خطر بأوهامي وأفكاري
لكن إذا قالت الأقدار كان لها
قوى تؤلف بين الماء والنار

وقتل من الكنانية عالم عظيم، وحصل للفرنج من شاور أموال جمّة،
فإنه كان يعطيهم عن كل يوم ألف دينار.

وأقام شيركوه بظاهر بليس ثلاثة أيام وسار إلى دمشق، فدخلها يوم
الأربعاء ثالث عشرين ذي الحجة.

فيها عزل شاور أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد
ابن أبي كامل، المعروف بالقاضي المفضل ضياء الدين بن كامل الصوري،
عن قضاء القضاة، وولى مكانه القاضي الأعز أبا محمد الحسن بن علي بن
سلامة، المعروف بالعوريس. (١٤٥)

سنة ستين وخمسة

فيها ركب البرنس أرناط، صاحب الكرك والشوبك، البحر إلى
عسقلان وخرج منها إلى الكرك، وجمع عسكره وأقام ينتظر شيركوه، فعلم
بذلك شيركوه، فمر من خلف الموضع الذي فيه أرناط، فلم يعلم به
ونجاه الله منه، ووصل إلى دمشق فضعف أمر عسكر مصر عند نور
الدين وهون عليه أمرهم، وحرّضه على قصدهم، وأكثر من التحدث في
أمر مصر.

وفيها عاد شاور إلى القاهرة، وخرج يحيى بن الخياط على شاور وحشد
ونزل الجيزة يوم الأربعاء بعد أن حاصر الكامل بن شاور في طنبدى (١٤٦)
ورحل عن الجيزة، فكسروا يوم السبت سابع عشر صفر، وقبض شاور

على ابن فحل وابن أبي كامل وقتلا ليلة الاثنين تاسع عشره، وتتبع من كان يكتاب شيركوه أو يوادّه، وتشدد في طلب أصحاب ضرغام. وكان قد استفسد جماعة من أصحاب شيركوه، منهم خشتين الكردي فأقطعه شطنوف (١٤٧).

وفيها فر الشريف... المحنك من شاور ولحق بنور الدين. وذلك أنه كان بعثه ضرغام إلى نور الدين في صرف رأيه عن نجدة شاور فوجد نور الدين مائلاً معه لأمره، منها: أنه تقرب إليه بدم مذهب الفاطميين، ووعده ملك مصر، وعرض له الأموال الكثيرة، فبالغ الشريف في الحط على شاور مع نور الدين، فأنفذه إليه، فلما اجتمع عتبه شاور على ما كان منه، وقال له: أنت تعلم أيها الشريف أن سبب قيامي على آل رزيك إنما كان لأجل ضرغام وإخوته من الأمراء البرقية واتبعت غرضهم فيما نقموه على ابن الصالح، ولما حصلت بالقاهرة رفعت من أقدارهم وزدت في أرزاقهم، وبلغتهم أمانيتهم، فلم يكن لهم إلا إزالتني ثم قتلهم أولادي ونهب أموالي وتشتت جماعتي، وبذل السيف في خاصتي وغلماني، فهل تعلم لي ذنباً إليهم؟ فقال له الشريف: أنت تعلم أيها الأمير أن ابنك طياً كان قد تعدى طوره وتجاوز حده حتى تعاظم عليك ونفذ أمره دون أمرك، وأنه بعد قتل رزيك بن الصالح أطلق لسانه في الأمراء ومد يده إلى أموالهم ونسائهم، وبهتهم في المجالس، وصاح عليهم في المواكب حتى حقدوا عليه، وشكوه إليك فلم تشكهم، وعامل أصحابك وغلمانك الناس بكل قبيح فمالت عنك الخاصة والعامة. فسكت عنه، ومازال في نفسه منه حتى تمكن من البلاد فأخذ يتطلبه، ففر منه (١٤٨).

سنة احدى وستين وخمسة

في أول المحرم مات الأمير هوشات. وفي ثلثه مات القاضي الجليس عبد العزيز بن الحباب (١٤٩).

سنة اثنتين وستين وخمسةائة

فيها جهز الملك العادل نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه من دمشق لقصده ديار مصر في جيش قوي، ومعه جماعة من الأمراء ، وكان كارهاً لمسير شيركوه لكثرة ما رأى من حرصه على السفر، فرحل يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول، وشيعة السلطان إلى أطراف البلاد خوفاً من معرفة الفرنج، فسار على ميمنة بلاد الفرنج. وبعث مري ملك الفرنج إلى شاور يخبره بمسير شيركوه بالعسكر إلى مصر، فأجابته يلتمس منه نجاته وأن المقرر من المال يحمل إليه على ما كان يحمل في السنة الماضية.

فسار مري بعساكره، وقد طمع في البلاد، على الساحل حتى نزل بليس، فخرج إليه شاور، وأقاموا في انتظار شيركوه. فبلغه ذلك، فنكب عن الطريق وهبط في يوم السبت خامس ربيع الآخر من وادي الغزلان إلى أسكر^(١٥٠) وخرج إلى إطفيح قبلي مصر فشن الغارة هناك.

واتصل الخبر بشاور، فرحل هو والفرنج يريدونه، ونزل شاور والفرنج بركة الحبش في يوم الأحد سادس جمادى الآخرة ، وتوجه في يوم الثلاثاء منه إلى دير الجميزة^(١٥١) ، فاندفع سائراً في بلاد الصعيد حتى بلغ شرونه^(١٥٢). وعدى منها إلى البر الغربي، وأدرك شاور ساقته فأوقع بهم، وعدى بعساكره وجموع الفرنج، ونزل شيركوه بالجيزة في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة تجاه مدينة مصر وأقام بها بضعاً وخمسين يوماً، وبعث الشريف أبا عبد الله الملقب بالرضي، ابن الشريف المحنك إلى الطلحين والقرشيين يستفزههم ويدعوهم إليه، وكان قد بلغه أن شاور أساء إليهم ، فأتوه مسرعين.

وبعث إلى شاور بأني أحلف لك أني لا أقيم ببلاد مصر ولا يؤذيك

أحد من أصحابي، وأكون أنا وأنت على الفرنج ونتهز فيهم فرصة قد أمكنت وما أظن أن يتفق للإسلام مثلها أبداً. فأبى شاور من قبول ذلك، والتجأ شيركوه إلى دلجة (١٥٣) ونزل شاور في اللوق والمقس ظاهر القاهرة، وأنشأ الجسر بين الجيزة والجزيرة، وشحن المراكب والرجال لتسير من خلف عسكر شيركوه.

وكتب شيركوه إلى الإسكندرية يستنجد بأهلها على الفرنج وشاور، فقاموا معه وأمروا عليهم رجلاً يعرف بنجم الدين بن مصال، من ولد الوزير، فكتبوا إليه أنهم يمدونه بالسلاح والحديد، وجهازوا إليه خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه ابن عوف، فأتاه الخبر بقرب شاور فلم يثبت، وترك خيامه وأثقاله، وساز سيراً حثيثاً ونزل قدر ما أطمع دوابه، ورحل من الليل فسار غير بعيد، ثم نادى في عسكره بالرجوع، فعاد إلى دلجة.

وسار شاور والفرنج في طلب شيركوه، فنزلوا الأشمونين وتبعوا شيركوه، فأمر شيركوه أصحابه بالتعبئة. فما طلع ضوء الصباح حتى أشرفت عساكر شاور وجموع الفرنج في عدد كبير، فقدم شاور فحملت على أصحاب شيركوه، فانهزم منها عز الدين الجاولي من أصحابه فلم يرد إلا الإسكندرية، وتفرق منهم عدد، فولى شيركوه وقد قتل من أصحابه جماعة وقتل من أهل الإسكندرية كثير.

وكان سبب الخلل في عسكر شيركوه أنه فرق أصحابه فرقتين، فرقة معه وفرقة مع ابن أخيه صلاح الدين يوسف.

ثم إنهم تجمعوا وقت الظهر ووطنوا أنفسهم على الموت، وحملوا على شاور ومن معه فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأبلى يومئذ صلاح الدين يوسف بلاءً حسناً وحمل حملات فرق بها الجموع وبدد شملها. وحمل

شاور على عسكر شيركوه فكسر القلب، فتلاحقت الميمنة بمن كان في القلب، واستمر القتال حتى حال بين الفريقين الليل، فانهزم كثير من الفرنج وقتل منهم كثير، وكاد ملكهم أن يؤخذ، ووقع في قبضة شيركوه وأصحابه نحو السبعين أسيراً.

وبات الفريقان وقد تبين الوهن في الفرنج، فسار شاور بمن معه إلى مية بني خصيب . وكانت هذه الواقعة في موضع يعرف بالبايين، بالقرب من الأشمونين، في يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة.

ثم إن شيركوه سار بأصحابه على طريق الفيوم إلى الإسكندرية وانتهب البحيرة، وأخذ عسكره غلالها ومواشيها، فخدمه ابن الزبير، متولي ديوان الإسكندرية، وحمل إليه الأموال وقواه بالسلاح، وأقام متخوفاً من مسير شاور إليه، فترك بالإسكندرية صلاح الدين يوسف وخرج إلى الصعيد وجبى أموال البلاد، فخرج شاور ونزل على الإسكندرية وحاصرها أشد حصار مدة ثلاثة أشهر ، ومنع عنها الميرة، فقلت بها الأتوات، هذا وشيركوه في جباية أموال الصعيد وأخذ غلاله.

ودخل عليه شهر رمضان ، فلما أتمه وأهل شوال بلغه ما نزل بالإسكندرية وأهلها من البلاء وقلة الأتوات، وأنها قد قاربت أن تؤخذ، فسار من قوص ونزل على مصر يوم الخميس ثامن شوال، فبلغ شاور أن شيركوه حاصر مصر، فرحل من الإسكندرية ، وأرسل شيركوه إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح، ورحل عن مصر إلى الشام. فبعث إلى ملك الفرنج يلتمس منه ذلك، فأجابه إليه ، وقرر مع شاور أنه يحمل إلى شيركوه جميع ما غرم في هذه السفارة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده. ووقع الحلف بالأيمان المؤكدة على ذلك.

فلما تقرر الصلح أرسل صلاح الدين إلى ملك الفرنج يقول إن لي

أصحاباً منهم القوي ومنهم الضعيف، فأما القوي فإنه يتبعنا في البر، وأما الضعيف فإنه يسير في البحر فنريد لهم مراكب، فأنفذ إليه عدة مراكب خرج فيها أصحابه.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية واجتمع بعمه أسد الدين شيركوه، ودخل شاور البلد، وجاءه مشايخ البلد للسلام عليه، ومري ملك الفرنج جالس معه، فلم ينظر شاور إلى الجماعة ولا أكرمهم، ولا أذن لهم في الجلوس، لأنهم كانوا قاتلوه قتلاً شديداً، فنقم عليهم ذلك. فقال له مري: أكرم قساك. فأذن لهم في الجلوس وعاتبهم على ما فعلوا من القتال وإظهار المخالفة. فسكتوا، وكان فيهم الفقيه شمس الإسلام أبو القاسم مخلوف بن علي المالكي، المعروف بابن جاره، شيخ الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر، فقال له: نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائنا من كان، فقال له مري: وحق ديني لقد صدقت هذا الشيخ. فسكت شاور وأكرمهم بعد ذلك اليوم.

وفر نجم الدين بن مصال والي الثغر إلى الشام، وقبض شاور على الأشرف بن الحباب قاضي الثغر وعاقبه، وأخذ منه مالا جزيلاً، ولم يقنع بالرشيد بن الزين الناظر فولى القاضي الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن ابن منصور بن نجا النظر عوضه، فبعث شاور وقبض على جميع من كان مع صلاح الدين من أهل مصر، وعلى ابن مصال. فشق ذلك على صلاح الدين، واجتمع بملك الفرنج في ذلك، فأرسل إلى شاور وما زال به حتى أفرج عنهم. فخافوا من شاور وعزموا على الرحيل إلى الشام، فخرج إليهم شاور بنفسه وجمع وجوههم وطمائهم، وحلف لهم أنه يضاعف لهم الإحسان ولا يتعرض لهم بسوء، فمنهم من إطمأن وأقام، ومنهم من رحل إلى الشام.

ووصل الذين ساروا من ضعفاء أصحاب صلاح الدين في المراكب

إلى عكا، وأحاط بهم الفرنج واعتقلوهم بمعصرة القصب حتى (عاد) ملك الفرنج فأطلقهم.

وتسلم شاور الاسكندرية في نصف شوال ، وسار شيركوه ومن معه وقد استمال شاور منهم جماعة ومعه مري ملك الفرنج حتى نزل الجيزة وعدى إلى القاهرة من المقس، فأقام مري أياماً ورحل عائداً إلى بلاده، فخرج شاور يودعه إلى بلبس، وعاد إلى القاهرة أول ذي القعدة، فخرج إليه العاضد يتلقاه إلى الطابية، وخلع عليه.

واستقر الأمر بينه وبين الفرنج أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عسكري إليها، وأن يكون لهم من دخل ديار مصر في كل سنة مائة ألف دينار. فقرر لهم شاور ذلك من غير علم العاضد ولا مشاورته ، فإنه كان ممنوعاً من التصرف، وشاور يستبد بأمر الدولة، فرحل الفرنج إلى بلادهم وتركوا بالقاهرة عدة من مشاهير فرسانهم، ورتبوا بها ابن بارزان والياً.

ووصل شيركوه إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة وفي نفسه من مصر مالا ينفصل ، لأنه خبر متحصلها، وعرف بلادها واستخف بأهلها.

واستقر شحنة الفرنج أولاً بالقاهرة في الموضع المعروف اليوم بقصر بيسرى من الخرنشف، وبعث الكامل شجاع بن شاور إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي محبته وولاءه، ويسأل الدخول في طاعته، وضمن له عن نفسه أنه يفعل هذا ويجمع الكلمة على طاعته، وبذل له مالا يحمله إليه كل سنة، فأجابه، وحمل إلى نور الدين مالا جزيلاً.

وأخذ شاور بعد عوده من الإسكندرية في الإكثار من سفك الدماء بغير حق، فكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار. واشتد ظلم إخوته وأولاده

وغلماناه ومن يلوذ به، وكثر تضرر الناس بهم ، فكان من تأمل أحوال الوزراء فإنه يجد الصالح بن رزيك ربي رجال الدولة، وجاء الضرعام فأفناهم، ثم جاء شاور فأتلف أموال مصر وأطمع الغز في البلاد، وجرأ الفرنج عليها حتى كان ما كان مما يأتي ذكره إن شاء الله.

وفيها أحضر القاضي رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن القاضي رشيد الدين أبي الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الأسواني، وقد فر إلى قريب برقة، فدخل على حالة سيئة، فأمر به شاور فضربت عنقه، وصلب عند مسجد الزيني على الخليج، بالقرب من قبو الكرمانى، في يوم الأربعاء العشرين من ذي العقدة.

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فيها بعث شاور إلى نور الدين رسالة مع شهاب الدين محمود، خال صلاح الدين يوسف، تتضمن أنه يحمل إليه مالاً في كل سنة من مصر مصانعة ليصرف عنه أسد الدين شيركوه، فأجاب نور الدين إلى ذلك، وأعطى شيركوه مدينة حمص وأعمالها زيادة على ما كان بيده. وذلك في شعبان، وأمره بترك ذكر مصر، فأرسل شاور إليه كتاباً يشكر صنيعة.

وفيها قتل شاور القاضي الرشيد أبا الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم ابن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني، صاحب كتاب « الجنان ورياض الأذهان»، وكان من أهل العلم والأدب، وله رسالة أودعها من كل مشكله ومن كل فن أفضله. وسار إلى اليمن رسولاً - وكان أسود - في أيام الحافظ، وتلقب بعلم المهتدين، فقال فيه شاعر من أهل اليمن من قصيدة بعث بها إلى الحافظ:

بعثت لنا علم المهتدين

ولكنه علم أسود

وولي نظر الإسكندرية ، فقتله شاور في المحرم، بسبب أنه داخل شريكه وصلاح الدين وخدمهما، بعد أن عذبه عذاباً شديداً، ثم ضرب عنقه.

فيها خرج يحيى بن الخياط يريد الوزارة ، فبعث إليه شاور عسكرياً هزموه حتى لحق بالفرنج.

وفيها ولي خطابة الجامع العتيق بمصر لتاج الشرف حسن بن أبي الفتوح ناصر بن إسماعيل الحسيني بعد موت أبيه يوم عيد الفطر.

سنة أربع وستين وخمسة

فيها تمكن الفرنج من ديار مصر وحكموا فيها حكماً جائراً، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم وقد تيقنوا أنه لا حامي للبلاد، وتبين لهم ضعف الدولة وانكشفت لهم عورات الناس. فجمع مري جموعه واستشارهم في قصد ديار مصر، فقبوا عزمه على المسير إليها فأجمع على الرحيل، واستدعى وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لأصحابه، ففرق قراها عليهم بعد ما كتب جميع قراها وارتفاع كل ناحية، واستنجد عسكرياً قوى به جنده.

فورد الخبر إلى شاور بمسير الفرنج إلى مصر في نصف المحرم، فبعث إلى ملك الفرنج الأمير ظهير الدين بدران، وقيس بن طي بن شاور.

وكان نور الدين بحلب، فأسرع مري إلى المصيء إلى مصر ظناً أن نور الدين بعيد منه وعساكره متفرقة عنه، فبلغ ذلك نور الدين، فأخذ في جمع عساكره.

ووصل مري إلى الداروم. فبلغ شاوراً فارتاع وبعث أميراً يعرف ببدران

لكشف الخبر، فلما اجتمع بمري خدعه ووعدته بعدة من قرى مصر ، نحو الثلاث عشرة قرية، وأمره أن يخبر شاور أنهم إنما قصدوا البلد للخدمة ، فلما عاد إلى شاور جهز إلى مري شمس الخلافة محمد بن مختار، فعندما دخل عليه قال له: مرحبا بشمس الخلافة. فقال: فمرحبا بالملك الغدار، وإلا ما أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى وصل إليكم ليزوج أختاً للكامل بن شاور بصلاح الدين يوسف ويزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فحسبنا أن هذا عمل علينا، فقال: ما لهذا صحة، ولو فعل لما كان ناقضاً للهدنة، فقال: الصحيح إن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبوا على رأينا، وخرجوا طامعين في بلادكم، فخننا من ذلك، فخرجت لتوسط الأمر بينهم وبينكم. فقال له: فكم تريد أن يكون مبلغ القطيعة التي تقوم بها؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: حتى أعود إلى شاور بهذا الخبر وأرجع إليكم بالجواب، فلا تبرحوا من مكانكم. فقال مري: بل نزل على بلييس حتى تعود.

وكان قد كتب إلى شاور: إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء في كل عام، فكتب إليه شاور: إن الذي قررته إنما جعلته لك متى احتجت إلى نجدتك أو إذا قدم علي عدو، فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك ولا لك عندي مقرر، فأجابه : لا بد من حضوري وأخذني المقرر، فعلم شاور أنه قد غدر وخان الأيمان، ونقض العهود، وطمع في البلاد، فجمع الأجناد وحشد العساكر إلى القاهرة، وسير إلى بلييس حفنة من العسكر، ونقل إليها ما تحتاج إليه من الأقوات والعلف.

فنزل مري على بلييس أول يوم من صفر، وكتب عدة من أعيان المصريين كتباً إلى مري يعدونه المساعدة، لكراحتهم في شاور، منهم علم الملك ابن النحاس، ويحيى ابن الخياط، وابن قرجلة، وجماعة، فقوي الفـرنـنج، وغندما قدم مري

إلى بلييس أرسل إلى طي بن شاور، وكان ببلييس ، أين ينزل؟ فقال لرسوله: قل له: تنزل على أسنة الرماح. فغضب من هذا وجعله سبباً لنقض ما قرره مع شمس الخلافة، وحاصر البلد حتى افتتحها قهراً بالسيف يوم الثلاثاء ثاني صفر، وأخذ الطاري والناصر، ابني شاور أسيرين، وقتل جميع من كان فيها وأسرههم وسباهم، ونهب سائر ما تحتوي عليه، وأسر المعظم سليمان بن شاور، وقيس بن طي بن شاور.

وأرسل إلى شاور يقول له: إن ابنك قال: أيجسب مري أن ببلييس جنة يأكلها! نعم ببلييس جنة والقاهرة زبدة، فصعد شاور إلى العاضد وسأله مكاتبة نور الدين وطلب معونته فإن الفرنج قد ملكوا ببلييس والمسلمون يضعفون عن دفعهم، وأنه متى حصل التقاعد أخذت مصر وأسر الفرنج من فيها من المسلمين، ويحثه على إرسال من يتدارك هذا الأمر، فكتب العاضد إلى نور الدين يستغيث به، وأرسل في طي كتبه شعور النساء والأطفال، وقال: هذه شعور نسائي وأطفالي من قصري مستغيثين بك لتنقدهم من الفرنج.

ويقال بل كان كتاب العاضد إلى نور الدين برأي شمس الخلافة، فإنه اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه، فلما حلف له قال: إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة، وآخر أمره يسلم البلد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد ، فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره، فصعد الكامل إلى الخليفة العاضد وكتب الكتاب وأرسله إلى نور الدين، فقبل للعاضد لم لا أطلعت وزيرك على ذلك، فقال أعرف أنه لا يوافقني عليه لكرهته في الغز، وأنا أعلم من أي باب أدخل عليه.

وأرسل إلى شاور يقول: أين استدعائي الغز من المسلمين لنصرة

الإسلام من استدعائك الفرنج للإعانة على المسلمين، فقال للرسول: قل لمولانا عني: أنت مغرور بالغز والله لئن تثبت لهم رجل بديار مصر لا كانت عاقبته وخيمة إلا عليك، فلما بلغه ذلك قال: رضيت أن تكون إسلامية وأكون فداء المسلمين.

فوافقت كتب العاضد، وكتب جماعة من الأعيان إلى نور الدين بحلب، فانزعج لذلك وجمع الأمراء للمشورة فأشاروا بإرسال أسد الدين شريكوه. وكان بحمص وقد وصلت إليه الكتب من مصر باستدعائه لإنقاذهم وإنقاذهم مما نزل بهم، فخرج منها يريد السلطان بحلب، وخرج رسول السلطان من حلب بطلبه، فتلاقيا بباب مدينة حلب، وعادا فلما رآه السلطان عجب من سرعة مجيئه، فأعلمه بموافاة الكتب إليه تستدعيه إلى مصر، فسر بذلك وتفاعل به، وأعطاه مائتي ألف دينار وثمانين سلاحاً ودواب، وحكمه في العسكر فاختر ألفي فارس، وجمع فسار في ستة آلاف فارس.

وخرج معه نور الدين إلى دمشق، فوصل إليها في سلخ صفر، وجهز أسد الدين وأعطى نور الدين كل فارس مئتي ديناراً مصرية غير محسوبة عليه من جامكيتته وأضاف إليه جماعة من الأمراء، منهم: عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وعين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وصلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان صلاح الدين كارهاً في مسيره إلى مصر كأنها يساق إلى الموت فأخرجه نور الدين كرهاً ليحق قول الله سبحانه إذ يقول: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (البقرة ٢١).

فإن نور الدين أحب مسير صلاح الدين إلى مصر فكان مسيره إليها

الخروج الملك عن أولاده، وكره صلاح الدين مسيره إلى مصر فكان في مسيره إليها تملكه إياها وغيرها من الأقاليم.

وسار شيركوه من دمشق في ثاني عشر ربيع الأول، وتقدم الفقيه عيسى الهكاري إلى العاضد سراً وخفية من شاور ليحلفه على أشياء .

وأما مري فإنه كثرت أمداد الفرنج عنده لقصد سكنى بليس، فنزلها بأبطاله، وأمر بإخراج الأسرى من أهل بليس إلى ظاهر البلد، وركب وقد اعتقل رحمه وحمل على الأسرى حتى فرقتهم فرقتين، فجعل لنفسه الفرقة التي وقعت عن يمينه، وأنعم بالفرقة اليسرى على أهل عسكره، وقال لمن صار إليه من الأسرى: قد أطلقتكم شكراً لله على ما أولاني من فتح مصر فإني ملكتها بلا شك. وما زال واقفاً حتى عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل، وأخذ عسكره أسراهم فاقسموهم، فبقوا في أيدي الفرنج بعد ذلك نحو الأربعين سنة، وهلك كثير منهم هنالك، وأفلت بعضهم.

وكان شمس الخلافة قد صار إلى مري قبل أخذه مدينة بليس بإجابته إلى القطيعة التي طلبها، فعاقه عنده حتى أخذ بليس، كما تقدم ذكره، ثم أذن له في الانصراف إلى القاهرة، واعتذر بأنه بلغه عن (قيس) ابن طي أشياء أمضته حتى فعل ما فعل، وأنه باق على ما تقرر معه، فعاد شمس الخلافة، وأشار على شاور بالاحتراز وقال: إن الرجل مخاتل، وأنفذت الكتب إلى نور الدين.

وكان شاور قد شرع في بناء سور على مدينة مصر واستعمل فيه الناس فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه، وحفر من ورائه خندقاً، فلم يكمل من ناحية النيل. وعمل في السور ثمانية أبواب أحدها بدار النحاس على ساحل البحر، وهدم في سنة.... وخمسين وستائة،

وآخر بجانب كوم البواصين، وثالث على سكة سوق وردان سقط سنة إحدى وستين وستمائة، وباب في طريق زين العابدين، وباب عرف باب الصفاء، وباب بحري مصلى الأموات سقط قبيل سنة خمسين وستمائة، وباب عند أقمنة الجير مما يلي درب السرية، وباب بقنطرة بني وائل، وتحت قنطرة بني وائل التي تصب في بركة الشيعية^(١٥٤)، التي كانت قديماً بستان الأمير تميم بن المعز، وكان الماء يدخل إليها من خليج مصر.

وسار مري بعقيب مسير شمس الخلافة عنه يريد منازل القاهرة بعد ما أقام ببليس خمسة أيام، فداخل الناس منه رعب شديد، وخوف عظيم، فاجتمعوا بالقاهرة ووطنوا أنفسهم على الموت، وكان هذا من لطف الله فإنه لو قدر أن الفرنج أحسنوا السيرة في أهل بليس لكان الناس لا يدافعونهم عن القاهرة ألبتة لما في قلوبهم من كراهة شاور، فما هو إلا قصد مري القاهرة وإذا بشاور قد قام في حريق مصر، وأمر شاور الناس بالانتقال منها إلى القاهرة، وحثهم على الخروج منها، فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وحرمتهم، وقد ماج الناس واضطربوا اضطراباً عظيماً.

ووقعت النار في الأسطول فخرج العبيد إلى مصر وقد انطلقت النار في مساكنها فانتهبوا سائر ما كان بمصر، وبلغ بالناس الحال أن كانت الدابة تكري من مصر إلى القاهرة ببضعة عشر ديناراً، والجمل بثلاثين ديناراً ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها، وملأوا جميع الشوارع والأزقة، وصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم على الطرق وقد ذهبت أموالهم وسلبت عامة أحوالهم، وهم مع ذلك ينتظرون هجوم الفرنج على القاهرة وقتل رجالها وسبي من بها من الحرير والصبيان.

وكان ابتداء الحريق بمصر في يوم (الثلاثاء) التاسع من صفر الموافق

له ثامن عشر هتور، واستمرت النار في المساكن أربعة وخمسين يوماً، والنهابة تهد ما هنالك وتحفر لطلب الخبايا.

ونزل مري بعساكره على بركة الحبش في يوم (الأربعاء) العاشر من صفر، فخرج إليه شمس الخلافة، فلما دخل إليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة، فخرج، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أتري دخاناً في السماء؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر ما أتيك إلا وقد احترقت بعشرين ألف قارورة نפט وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه، فخل الآن عنك. فقال مري: لا بد من النزول على القاهرة ومعني فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها.

ثم رحل فنزل القاهرة في عاشر صفر مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ، تقع في خيمه^(١٥٥).

١٥٥ - بهامش الأصل عدة أسطر مطموسة الآخر « بخط المصنف. ومن طريف ما وقع في هذه النوبة أن شيخاً من أجناد مصر يقال له الأمير الصادق، عرف بذلك لكثرة كذبه، كان مقدماً على طوائف من الجنود، وكان يثير الفتن على السلاطين، وهو الذي كان أبداً يقول للجنود صيحووا على السلطان: لا لا ، وإذا كان لقاء في الحرب تحيز بطائفته على كوم أو موضع مرتفع فإذا رأى العدو قد أقبل نزل هاربا وهو يقول للجنود: أرجلكم والطريق، فينكسر بحركته. فلما كانت هذه الحادثة سلم إليه برج من أبراج سور القاهرة، وهو برج البرقية، كما سلم لغيره من مقدمي الأجناد بقية أبراج السور. وكان هذا المقدم لا ينزل من السور ولا يفارقه قدر شبر لفزعه من الفرنج، فإذا حمل الفرنج على المصاف الذي قدام البرج الذي هو فيه يقول: الأوباش الذين أخذناهم من فوق السور

ولكم خبطوهم بالصراخ فيصرخون للفرنج وهو يصيح خوفاً ها هم
خوذوهم ويظن أن الفرنج ينكسرون بذلك، والفرنج يضربون الناس
بالسيوف إلى السور، وهو مع خوفه يظن أنه يجتمي من برصانيات الفرنج
بالصراخ.

وقاتل أهل القاهرة قتالاً شديداً وحفظوها وبدلوا جهدهم، واشتد
الفرنج في محاصرة القاهرة وضيقوا على أهلها حتى تزلزل الناس زلزالاً
شديداً وضعفت قواهم، وشاور هو القائم بتدبير الأمور، فبين له العجز
عن مقاومة الفرنج وأنه يضعف عن ردهم، وخاف من غلبتهم فرجع
عن مقاومتهم إلى مخادعتهم وإعمال الحيلة، فأرسل شمس الخلافة إلى
مري يطلب منه الصلح على أن يحمل إليه أربعمائة ألف دينار معجلة،
فأجاب إلى ذلك، ويقال إنه خوفه من نور الدين واعتذر بأنه لولا
الخوف من العاضد ومن معه من المسلمين وإلا سلمه البلد، وإنه تقدم
له بألف ألف دينار. فتقرر الصلح.

على أن مري قال: لا أسمع من كلام شاور فإنه غدار، ولا بد من كلام
الخليفة العاضد، فمشى أبو الفتح عبد الجبار بن عبد الجبار بن إسماعيل
ابن عبد القوي، المعروف بالجليل قاضي القضاة وداعي الدعاة، ومعه
الأستاذ صنيعة الملك جوهر، بين الفرنج وبين الناس حتى تقرر الأمر
على تعجيل مائة ألف دينار وحمل الباقي بعد ذلك مع القطيعة المقررة
كل سنة، وزيادة عشرة آلاف دينار وعشرة آلاف إردب غلة على ما يقترح
من أصنافها، فأرسل العاضد القاضي الفاضل عبد الرحيم إلى الشيخ
الموفق ابن الخلال كاتب الدست، وكان مريضاً والفاضل ينوب عنه
بتعيين الكامل بن شاور، وقال له: استشره في هذا الأمر، فمضى الفاضل
إليه، وعرض ما تقرر عليه، وبلغه عن العاضد ما أشار به من أخذ رأيه

في ذلك، فقال: قبل الأرض عني لمولانا وقل له عن مملوكه إن وجد المشتري منها وصبر البائع فليست بغالية، وبين قيل وقال يتصرم الوقت.

وشرع شاور في حمل المال، فلم يجد في حاصل الخبايا بالقصر سوى مائتي ألف دينار مدفونة في أحد كمي المجلس من ذخائر الحافظ، أطلعهم عليها أستاذ من استاذي القصر، فأخرجت وحمل إلى الفرنج منها على يد ابن عبد القوي مائة ألف دينار، فأخذوها بعد امتناع. ووقع الطلب من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصل من الناس إلا نحو الخمسة آلاف دينار، لفقر أهل مصر، وسوء حالهم، وذهاب أموالهم في الحرق والنهب بحيث صاروا لا يجدون القوت عجزاً عنه، ولأن أهل القاهرة أكثرهم الجند وأهل الدولة وأتباعهم فقال الفقيه عمارة:

يا رب إني أرى مصر أقدمت انتبهت
لها عيون الليالي بعد رقدتها
فاجعلها ملة الإسلام باقية
واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عوناً نستجير به
من فتنة يتلظى جمر وقدمتها

فبينما الفرنج في استحثاث أهل القاهرة في حمل المال إذ وصل إليهم في مستهل ربيع الآخر خبر قدوم أسد الدين بالعساكر، فأزعجهم ذلك ورحلوا عن القاهرة يوم السبت، ثالث ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألفاً ما بين رجل وصبي وامرأة. فنزلوا على بلبس، وساروا منها إلى فاقوس.

ونزل أسد الدين بالمقس إلى اللوق خارج القاهرة يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر، فخرج إليه العاضد وتلقاه.

وكان شاور لما بلغه وصول شيركوه إلى صدر أخرج شمس الخلافة إلى

مري فقال له: قد وقف المال علينا، وقد جئت إليك أستوهب منك بعض ما قطعت علينا، فقال مري: اطلب ما شئت، قال: تهب لي من الألفي ألف ألف ألف. قال: قد فعلت فقال شمس الخلافة: ما بلغني أن ملكاً وهب مثل هذا لقوم هم في مثل حالنا، فقال مري: أنا أعلم أنك رجل عاقل وأن شاوراً ملك، وأنكما ما سألتماي أن أهب لكما هذا المال العظيم إلا لأمرٍ قد حدث. فقال: صدقت، هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نصرته لنا وما بقي لك مقام، وشاور يقول لك: أرى أن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لنا ولك، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذه الألف ألف بشيء وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال مري: أنا راض بذلك. فقال: وأن تطلق ابن طي بن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى، ولا تأخذ من بليس بعد انصرافك شيئاً، فأجاب إلى ذلك، وأطلق ابن شاور ورحل.

ولما قارب شيركوه القاهرة خرج شاور إلى لقائه وقابله بالاحترام والإكرام، وأشار عليه باتباع الفرنج، فلم ير ذلك واعتذر بما هم فيه من التعب.

ونزل أسد الدين بظاهر القاهرة، ودخل على العاضد فخلع عليه في تاسعه بالإيوان، وعاد إلى مخيمه، وقد فرح الناس بقدمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة والإقامات الوافرة، وثقل ذلك على شاور ولم يقدر على عمل شيء لما عرفه من ميل العاضد إلى شيركوه، وشرع يماطل بما تقرر لشيركوه ولنور الدين وهو يركب كل يوم إليه ويسير معه، ويعده ويمنيه.

وعزم على أن يعمل دعوةً ويحضر شيركوه وجميع أمرائه، فإذا صاروا إليه قبض عليهم واستخدم من معهم من الجند ليمنع بهم الفرنج، فنهاه

ابنه شجاع عن ذلك وقال: والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال: يا بني، والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً. قال: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً، فترك شاور ما عزم عليه.

ولما طال مطال شاور على الغز اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك على قتل شاور.

واتفق أن شاوراً رأى في منامه كأنه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواته وهو يوقع، والحاجب بين يديه يتناول منه التوقيع، فقال: من هذا الذي جلس في مجلسي ووقع من دواتي؟ فقيل له: هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: وما يصنع محمد عندي، أما كان له في مملكة غيري متسع؟! ثم إنه قام إليه وضربه بسيفه حتى قتله وألقاه بظاهر الدار، فلما استيقظ هاله ما رآه، واستدعى أبا الحسن علي بن نصر الأرتاحي العابد، وكان نادراً في علمه، وقص عليه ما رأى، فقال له: هؤلاء الذين في القصر من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون هلاكهم على يدك، فأمره بكتمانه، فلم يظهر حتى قتل شاور.

ويقال إن العاضد خرج متنكراً إلى شيركوه وأمره بقتل شاور، فركب على عادته إلى شيركوه ومعه الطبل والبوق وخرج من باب القنطرة، فلما صار في مخيم الغز تلقاه صلاح الدين وجرديك في جماعتهم وأعلموه أن أسد الدين توجه إلى القرافة، فقال: نمضي إليه، فساروا جميعاً وصلاح الدين وجرديك عن يمينه وشماله، وكان اليوم كثير الضباب، فتناول صلاح الدين شاور على غرة هو وجرديك وألقياه عن فرسه إلى الأرض،

وأحاط أصحابها بمن مع شاور فانتهبوهم وفروا عنه. وأخذ أسيراً إلى المخيم، وأرسلوا إلى شيركوه، فحضر، وبلغ ذلك العاضد فأنفذ في الحال إلى شيركوه أحد الأستاذين بسيف. وقال: هذا غلامنا ولا خير فيه لك ولا لنا، فأمض حكم الله فيه، فقتل في يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر، وحملت رأسه إلى العاضد.

وفر الكامل شجاع بن شاور هو وأولاد أخيه إلى القصر، فكان آخر العهد بهم، وأحضرت رؤوسهم يوم الاثنين رابع جمادى الأولى، وبعث شيركوه يطلبهم، فأرسل إليه العاضد طبقاً من فضة مغطى، فلما كشف عنه وجد فيه رأس شجاع ورؤوس أولاد أخيه، فتأسف على قتل شجاع لما كان يبلغه عنه من منعه أباه من عزمه على الفتك بهم.

وكانت وزارة شاور هذه كثيرة الوقائع والنوازل فإنه أطمع الغز والفرنج في البلاد وجرحهم إليها، فأحرق مصر وأزال نعم أهلها وأذهب أموالهم، وكان السبب في إزالة الدولة الفاطمية من ديار مصر وتملك الغز لها.

وكان مع ذلك منقاداً لولده الكامل قد أطاعه وسلم الأمر إليه بحيث إنه كان يأتي إلى داره فيحتجب عنه، وكان ضيق العطن، لا يصبر على شيء مما يتقل إليه من الأخبار. وكان إذا سئل وهو في الخدمة لا يرد سائلاً في شيء، وكان شديد النكال إذا عاقب، فتكشفت في وزارته الثانية التي قتل فيها صفحاته، وأحرقت كافة أهل مصر لصفحاته، وأغرقتهم نفحاته، فغصه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وكان عاقبة أمره القتل والعار، وسوء المنقلب والدمار.

ثم إن أسد الدين ركب بعد قتل شاور بجموعه ودخل إلى القاهرة في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر يريد لقاء الخليفة العاضد، فهاله ما

رأى من كثرة اجتماع الناس وتخوف منهم، فأراد أن يفرقهم، فقال لهم: إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فتسارعوا إليها وانتهبوا سائر ما كان فيها، فصعد شيركوه إلى القصر، وخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، ونزل إلى دار الوزارة حيث كان ينزل شاور ومن قبله من الوزراء، فلم يجد ما يجلس عليه، لما شملها من النهب، فجلس للهناء وغلب على الأمر.

وخرج إليه التوقيع بخط القاضي الفاضل وإنشائه، فقرأه المجلس ابن عبد القوي قاضي القضاة، على رؤوس الأشهاد، وفي أعلاه بخط العاضد: « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلاً بحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعتزت بأن بثوة النبوة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سيلاً، (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) (النحل ٩١). وهو توقيع كبير.

وكتب القاضي الفاضل إلى نور الدين محمود بن زنكي كتاباً بأن يقر شيركوه عنده بمصر فإنه فوض إليه الوزارة وأمر الجيوش، تاريخه سبع وعشرين ربيع الآخر وكتب العاضد علامته بين سطره الأولين بخطه « الله ربي»، فعاد الجواب بالامثال.

وسلك أسد الدين مع العاضد مسالك الأدب حتى أعجب به، ومال إليه، وركب إلى مصر فرأها مشوهة بالحريق وقد تلفت فيها أماكن وسلمت أماكن، وتشعث الجامع، فشق عليه، وعاد وقد حضر إليه الأمير ابن مماتي والقاضي الفاضل، فأمر بإحضار أعيان المصريين الذين جلوا عن مصر في الفتنة وصاروا بالقاهرة، فتغمم لما نزل بهم، وسفه رأى شاور فيما فعله، وأمرهم بالعود إلى مصر، فشكوا ما حل بهم من الفقر وذهاب

الأحوال وخراب المنازل، وقالوا: إلى أي موضع نرجع وفي أي مكان نأوي؟ فقال: لا تقولوا هذا، وعلي بإذن الله حراستكم وإعادتها إليكم على ما كانت عليه وأحسن فاستدعوا مني كل ما لكم فيه راحة، فهي بلدي وربما أسكن فيها بينكم. فشكروا له ودعوا.

وأمر فنودي على الناس بالرجوع إلى مصر، فترجعوا إليها شيئاً بعد شيء. ٤.

وجعل أسد الدين اجتماعه بالخليفة العاضد في الشباك على العادة، فأول ما اجتمع به قال له الأستاذ صنيعة الملك جوهر، وكان أكبر الأستاذين وأفصحهم لساناً، وهو قائم على رأس العاضد: يقول لك مولانا لقد كنا نؤثر مقامك عندنا أول طروقك بلادنا، ولكن أنت تعلم الموانع عنه، ولقد تيقنا أن الله عز وجل ادخرك لنا نصرة على أعدائنا، فقال أسد الدين شيركوه: ياموليننا - يامالة اللام - والله لأنصحك في الخدمة ولأجعلن دولتك بعون الله قاهرة. فقال الأستاذ: يقول لك مولانا: الأمل فيك هذا وأكثر، ثم جددت له الخلع وأفيضت عليه، ونزل إلى داره.

وحسن عنده موقع الجليس ابن عبد القوي، قاضي القضاة وداعي الدعاة، وأثنى عليه وشكره، وقال: لولا مذهبه، فقال: إنه ولد بالمغرب وله دالة على الخليفة، ولولا ضبطه حواصل القصر لخرجت كلها لكرم العاضد، لكنه يحترمه ويقبل مشورته. فازدادت مكانته عند أسد الدين وأقره على حاله.

واستبد أسد الدين بأمور المملكة، وغلب على الدولة، واستعمل أصحابه وثقاته على الأعمال، وأقطع البلاد لعساكره. ولما أكب الناس عليه بالتواقيع قلق من كثرة ما يوقع وقال: أظن مولانا استخدمني كاتباً.

في رابع جمادى الأولى قتل الكامل شجاع بن شاور، والمعظم سليمان ابن شاور، وركن الإسلام نجم أخو شاور، وأحضرت رؤوسهم إلى أسد الدين شيركوه.

ولما بلغ نور الدين وزارة شيركوه للعاضد واستبداده بالأمر كره ذلك وأمضه، وظهر ذلك على صفحات وجهه وفتلات لسانه، وأخذ يتحدث في ذلك، وأفضى به إلى الأمير مجد الدين ابن الداية. وأخذ يعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين، وكاتب العاضد في ذلك غير مرة، ويلتمس منه أن يبعث إليه أسد الدين، يريد بذلك إخراجه عن مصر فلم يسمح العاضد بإرساله لأنه دبر الأمور وقام بحمل أعباء المملكة من غير أن يغير على أصحاب العاضد شيئاً من أحوالهم، ولا أنكر عليهم أمراً من أمورهم، بل أقرهم على عوائدهم سوى أنه أقطع البلاد لأصحابه.

وتولى عنه التدبير ابن أخيه صلاح الدين وقام بمباشرتها، فصار إليه الأمر والنهي حتى مات أسد الدين، بعد أن استقر في الوزارة ثلاثة وستين يوماً، يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بخناق تولد له من إكثاره أكل اللحوم الغليظة، ودفن في الدار فلم تخرج له جنازة.

وكان شجاعاً قوياً، جليداً عفيفاً، متألهاً، يحب أهل الخير، وله إيثار، وفيه ضبط وإمساك. وأصله من دوين، بليدة من عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، وهو من قبيل الروادية إحدى بطون الهذبانية من قبائل الأكراد. وقدم هو وأخوه نجم الدين أيوب، وكان أسن منه، إلى بغداد واتصلا بخدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق من قبل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولزامه، فبعث بأيوب إلى تكريت، وكانت إقطاعه، فأقره فيها دزداراً - ومعناه حافظ القلعة، فإن « دز » بالفارسي القلعة، « ودار » الحافظ - فأقام بها ومعه أخوه

شيركوه، وله به إقطاع، إلى أن انهزم عماد الدين زنكي من العراق، من قراجا الساقبي، ووصل إلى تكريت، فأمكنه أيوب من قلعته ورفعها إليها بالحبال، وخدمه هو وأخوه شيركوه، فاعتدها يداً لهما. ثم أقام له السفن حتى عبر دجلة، وتبعه أصحابه فأحسن إليهم وسيرهم إليه.

فبلغ ذلك الأمير مجاهد الدين أستاذه فأنكر عليه وأخرجه من قلعة تكريت، فسار هو وشيركوه إلى عماد الدين زنكي، وهو يومئذ صاحب الموصل، فأكرمها وأقطعها إقطاعاً، وتقدما عنده، فلما ملك بعلبك جعل نجم الدين دزدارها، فأقام بها إلى أن قتل عماد الدين زنكي، وحصر عسكر دمشق بعلبك لأخذها لصاحب دمشق، مجير الدين أبق ابن محمد بن بوري بن ظهير الدين طغتكين الأتابك، فبعث إلى سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بالموصل يعرفه ويطلب منه عسكراً فلم يجبه، فسلم بعلبك لصاحب دمشق على إقطاع، وصار أحد أمراء دمشق.

وأما شيركوه فإنه لما خدم عماد الدين زنكي تمكن منه، بواسطة الوزير جمال الدين الأصفهاني، إلى أن قتل، فتعلق بخدمة ابنه نور الدين محمود ابن زنكي وتخصص به، حتى عظمت منزلته عنده، وصار معه إلى حلب فأقطعه وأنعم عليه، ثم أعطاه مدينة الرحبة وتدمر إلى أن جهزه إلى مصر وعاد منها وهو كثير الذكر لها، فخافه نور الدين وصرفه عنه وأعطاه مدينة حمص، وجعله مقدم عسكره إلى قدم مصر وملكها - كما تقدم - إلى أن مات، فدفن بالقاهرة، ثم نقل منها إلى المدينة النبوية بعد مدة.

ولما احتضر قال: من ههنا؟ فقال الطواشي بهاء الدين قراقوش: عبدك قراقوش. فقال: بارك الله فيك، الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا، ومتنا وأهلها راضون عنا، وأوصيكم: «لا تفارقوا سور القاهرة حتى تطير رؤوسكم، واحذروا من التفريط في الأسطول».

ولما توفي أسد الدين افترق أهل القصر وحواشي الخليفة العاضد من الأستاذين وغيرهم فرقتين: فأما إحداهما - وكبيرهم الأستاذ صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر - فإنهم قالوا: قد مات أسد الدين المهدي به في الشرق والغرب ولم يحدث إلا خير، ومن الرأي أن نمسك مغلته ونضيف إليها من جياذ فرسان الغز ما تكون جملته ثلاثة آلاف فارس، ونقدم عليهم بهاء الدين قراقوش، وننزلهم بالشرقية، ونجعلها بأجمعها إقطاعاً لهم يسكنون بها، فيصيرون بيننا وبين الفرنج الذين طمعوا في البلاد، يقاتلون عن حرمهم وإقطاعاتهم، ويرتب مولانا من أجناد الديار المصرية من ينتفع به، ولا يقيم وزيراً تثقل وطأته ويشارك الخليفة في أمره، بل يجعل صاحب وساطة بين الناس وبين الخليفة.

وقالت الطائفة الأخرى: لا وحق الله، ما يكون وزير مولانا إلا ابن أخي وزيره الذي هو منه وإليه، يعنون صلاح الدين، وإذا بقي المذكور أقام معه قراقوش وغيره من المعترين.

وكذلك وقع في عسكر أسد الدين، فإن شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، والأمير عين الدولة ياروق الياروقي، وأخاه الأمير بهاء الدولة، والأمير قطب الدين خسرو بن تليل، والأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب طلب كل منهم الوزارة لنفسه وجمع أصحابه ليغالب عليها.

واجتمع مماليك أسد الدين، وهم خمسمائة، على صلاح الدين وطلبوا وزارته، وتحدثوا بأن أسد الدين أوصى إليه، فبعث العاضد إليهم وسأل الأمراء من يصلح للوزارة، فسار إليه شهاب الدين محمود الحارمي وأرشده إلى تولية صلاح الدين، وكان العاضد قد مال إليه وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم لما اختلفوا، كما تقدم ذكره: والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين، وما بلغت غرضاً في حقه لقرب عهد

مقام عمه؟ فأرسل إليه وخلع عليه خلع الوزارة بالعقد والجوهر، وحنكة، ونعته بالملك الناصر، وذلك في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة.

وصفة الخلعة ثوب أبيض دبيقي بطرازين ذهب، وطيلسان بطراز ذهب دقيق، وعمامة بيضاء مذهبة، وفي عنقه العقد الجوهر وقيمته عشرة آلاف دينار، وقد تقلد سيف الوزارة وقيمته خمسة آلاف دينار. وركب حجرة صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، وعليها سرفسار ذهب مجوهر، وأعلاقها من سبته، وفي عنقها مشدة بيضاء برأسها مائتا حبة جوهرًا، وفي أربع قوائمها أربعة عقود من جوهر، وعلى رأسه قصبه ذهب في رأسها طلعة مجوهره ومشدة بيضاء بأعلام ذهب. وحمل بين يديه عدة بقج فيها أنواع من الثياب، وقيد معه أيضا عدة خيول، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض بخط القاضي الفاضل ومن إنشائه، وقرأه الجليس ابن عبد القوي. وهو كبير جدا وعلى رأسه بخط العاضد: « هذا عهد أمير المؤمنين إليك: وحجته عند الله سبحانه عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضا بيمينك، ولمن مضى بجدنا رسول الله أحسن أسوة، ولن يبقى أعظم سلوة. (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) (القصص ٨٣). فكان آخر منشور كتب عن العاضد.

ولما نزل صلاح الدين إلى دار الوزارة لم يطعه أحد من الأمراء النورية ولا خدموه، فسعى الفقيه عيسى الهكاري في الإصلاح بينه وبينهم، وبدأ بالمشطوب فقال له: هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي (وابن تليل)، ثم قصد الحارمي وقال له: هذا صلاح الدين ابن أختك، وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك، وما زال بهم حتى مالوا إليه وأطاعوا بأجمعهم إلا عين الدولة فإنه قال: لا أخدم يوسف أبداً، وخرج من

القاهرة بجماعة وصار إلى نور الدين بالشام.

فلما بلغ نور الدين استيلاء صلاح الدين أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه من شدة ما عظم عليه ذلك وأغضبه.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وساس الأمور، وكاتب الأطراف، وأقبل على الجدد، وتاب عن الخمر، وأعرض عن اللهو، وتقرب إلى الخليفة العاضد بما يرضيه فأحبه وأدناه حتى كان يدخله إليه القصر راكباً ويقوم عنده بالقصر عدة أيام . وعظم في الدولة حتى حسده الأمراء وبأينه جماعة منهم وتوجهوا إلى الشام، وشرع في استمالة قلوب الناس إليه فبذل فيهم المال وأخرج ما كان في خزائن عمه أسد الدين، واستدعى من العاضد فأمدته بشيء كثير من المال، فكان أمره في زيادة وقوة وأمر العاضد في نقص وضعف.

وركب العاضد ومعه الملك الناصر صلاح الدين يوسف في غرة شهر رمضان، وحمل العادل أبو بكر السيف، ثم ركب أيضاً جمعيتين في شهر رمضان إلى الجامع الأزهر والجامع الأنور على العادة، وركب في عيد الفطر.

وأرسل إلى نور الدين يسأله في إرسال أبيه وأخيه فلم يجبه إلى ذلك.

وصارت الخطبة بديار مصر للعاضد ومن بعده للملك العادل نور الدين، وهو في الظاهر ملك الديار المصرية، وصلاح الدين لا يتصرف إلا عن أمره كالنائب في الأمر عنه، ونور الدين لا يفرد بكتاب، بل يكتب : « الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا»، ويجعل علامته على رأس الكتاب تعظيماً لنفسه وترفعاً عن أن يكتب اسمه.

وعندما بلغه وفاة أسد الدين شق عليه استيلاء صلاح الدين، وتبع أصحابه وأصحاب أسد الدين، وأخذ إقطاع صلاح الدين وإقطاع أسد الدين، ومنع نوابه من التصرف في حمص، وأبعد أهاليهم واستقلهم وطردهم عنه، وكتب إلى الأمراء بمصر بمفارقتة وتركه بمصر وحيداً ليوهن أمره، وشرع يذمه ويذكره بالسوء ويعتته في الطلب بحمل الأموال إليه، وصار كثيراً ما يقول: « ملك ابن أيوب»، ويستعظم ذلك احتقاراً له.

وثقل ذلك على أهل الدولة وحواشي الخليفة العاضد، فإنه أقطع أصحابه أجل البلاد وقواهم، وأبعد أهل مصر وأضعفهم، واستبد بجميع الأمور ومنع العاضد من التصرف، ففطن العاضد لما يريد من إزالة الدولة، فثار الأستاذ مؤتمن الخلافة جوهر، وهو يومئذ من أكابر خدام القصر، وبعث بمكاتبة إلى الفرنج يستنجد بهم على الغز، ويحثهم على قصد البلاد ليخرج إليهم صلاح الدين بعساكره فيثور عند ذلك بعبيد مصر وطوائف العسكر، ويصير صلاح الدين محصوراً بين الفرنج وبينهم فيأخذونه ويتلفون من معه، ووافق على ذلك جماعة.

وبعث رجلاً بالكتاب إلى الفرنج بعد ما جعله في نعل كي لا يعثر عليه، فلما وصل الرجل إلى البئر البيضاء (١٥٦) قريباً من بلبليس، ظفر به بعض أصحاب صلاح الدين ومعه نعلان جديدان في يده، فارتاب لما رآه من سوء حاله وحسن النعلين، وعلم أنها لا يلقان به، ولو كانا من ملابسه لكان تين فيهما أثر الاستعمال، فأخذهما منه وشقهما فوجد فيهما الكتب إلى الفرنج، فتقرب بذلك إلى صلاح الدين، وحضر بالرجل والكتب إليه، فكتب ذلك، وتبع من كتب الكتب حتى أحضر إليه برجل يهودي، فلما خاف منه أسلم وأخبره الخبر.

فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة وخشي على نفسه، فلزم القصر وامتنع من

الخروج مدة وصلاح الدين لا يلتفت إليه، فاغتر بإعراضه عنه وخرج إلى منظره له على النيل، بستان بناحية الخرقانية قريباً من قليب، فأرسل إليه صلاح الدين بجماعة من أصحابه هاجموا وقتلوه، وصاروا إليه برأسه، وذلك في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، وجعل صلاح الدين زمام القصر عوضه الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، فغضب لقتله السودان وحرك منهم ما كانوا يتكتمونه، فاجتمعوا لحرب صلاح الدين في سادس عشرينه، صبيحة قتل مؤتمن الخلافة، وقد صاروا في جمع كثير من الأمراء المصريين وعوام البلد يزيد على الخمسين ألفاً، وزحفوا إلى دار الوزارة.

فبدر إليهم فخر الدين شمس الدولة توران شاه، وركب صلاح الدين بعساكره وقد تجمعت الریحانية والجوشية والفرجية ومن انضاف إليها في بين القصرين، وخرجت إليهم الأرمن، فوقع بين الفريقين قتال عظيم استظهر فيه العبيد على الغز، والعاضد في المنظره يشرف على الوقعة، فلما تبين الغلب للعبيد وكادوا أن يهزموا الغز رمى أهل القصر بالنشاب والحجارة حتى امتنعوا عن مقاتلة العبيد، فنادى شمس الدولة النفاطين وأمرهم بإحراق المنظره التي فيها العاضد فطيب قارورة وصوب على المنظره بها، فإذا بباب الطاق قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة، أحد الأستاذين الخواص، وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم. فلما سمع العبيد ذلك، وكان قد قتل أحد مقدميهم، وبعث صلاح الدين في أثناء محاربتهم لهم إلى حارة السودان خارج باب زويلة، المعروفة بالمتصورة، فأحرقها وتلفت أموالهم وهلكت أولادهم وحرمتهم، فضعفت لهذه الأمور أنفس العبيد، وانهمزموا بعد ما ثبتوا يومين، وتبين لهم الغلب، فركب الغز أقيتهم يقتلون ويأسرون، إلى أن وصوا إلى السيوفية وثبتوا هنالك، فألقى شمس الدولة النيران في المواضع التي امتنعوا بها.

وأحرق أيضا دار الأرمن التي كانت بين القصرين، وكان بها خلق كثير من الأرمن كلهم رماة لهم جار، وكانوا في هذه الحروب قد أنكوا الغز بشدة رميهم ومنعواهم أن يتجاوزوا من مواضعهم إلى محاربة العبيد، فلما احترقت عليهم الدار لم يكذب يفتل منهم أحد، فالتجأ العبيد إلى عدة أماكن، وكلما امتنعوا بموضع ألقى فيه الغز النار وقتلواهم، حتى صاروا إلى باب زويلة وأخذت عليهم أفواه السكك وقد وهنوا ولم يجدوا لهم ملجأ. فصاحوا وطلبوا الأمان، فأمنوا على ألا يبقى منهم أحد بالقاهرة، فخرجوا بأجمعهم إلى الجيزة. ومال الغز على أموالهم وديارهم واستباحوا جميع ما فيها، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة، فما هو إلا أن صاروا بالجيزة حتى عدى إليهم شمس الدولة بالعسكر فأبادهم حصداً بالسيف، ولم ينج منهم إلا الشريد. وأمر صلاح الدين بتخريب المنصورة وصيرها بستانا، فمضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر.

وقوي صلاح الدين، وتلاشى العاضد وانحل أمره، ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة، ووالى صلاح الدين الطلب من العاضد في كل يوم ليضعفه، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك، حتى أن العاضد كان في بعض الأيام بالبستان الكافوري وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرساً وهو راكب، فقال: ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما وسلم إلى القاصد الفرس وعاد إلى قصره ماشياً، فلزم مجلسه ولم يعد بعدها يركب حتى مات.

وأخرج صلاح الدين خاله الأمير شهاب الدين الحارمي إلى الصعيد يتبع من فر من العبيد فأفناهم، ولم يبق منهم بديار مصر إلا من اختفى، بعد أن كانت البلاد كلها لا تخلو ضيعة ولا محلة من أن يكون فيها مكان معد للعبيد، محمي لا يدخله وإلا ولا غيره. وكان منهم ضرر على الناس.

وأخذ صلاح الدين في القبض على دور العبيد والأرمن والأمراء،
وأسكن فيها أصحابه معه بالقاهرة.

وكان قاع النيل في هذه السنة ست أذرع وثمانى أصابع، وبلغ ثمان
عشرة ذراعاً^(١٥٧).

سنة خمس وستين وخمسة

فيها قدم من الشام إخوة صلاح الدين يوسف وعياله، وقيل كان
قدومهم في سنة أربع .

فيها تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خوفاً من صلاح الدين ونور الدين،
عندما بلغهم تمكنه من ديار مصر وقطع آثار جند المصريين، فكاتبوا
فرنج صقلية وغيرهم واستنجدوا بهم، فأمدوهم بالمال والسلاح
والرجال، وساروا بالدبابات والمنجنقات إلى دمياط، فنزلوا عليها في
مستهل صفر بألف ومائة مركب، ما بين شيني ومسطح وشلندي
وطريدة، وأحاطوا بها براً وبحراً.

فبعث صلاح الدين بالأمير تقي الدين (عمر بن شاهنشاه بن أيوب
- ابن أخي صلاح الدين) ، وأتبعه بالأمير شهاب الدين الحارمي، في
عساكر إلى دمياط، وأمدهم بالمال والميرة والسلاح.

وألح الفرنج على أهل دمياط وضايقوهم، والناس فيها صابرون في
محاربتهم، وبعث صلاح الدين إلى نور الدين . يستنجده ويعلم أنه
لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفاً من قيام المصريين
عليه، فجهز إليه نور الدين العساكر شيئاً بعد شيء، وخرج بنفسه إلى
بلاد الفرنج بالساحل وأغار عليها واستباحها.

واستمر الفرنج على دمياط أحداً وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها في الحادي والعشرين ، وقيل في الثالث والعشرين، من ربيع الآخر، خوفاً على بلادهم من نور الدين ولفناء وقع فيهم، وغرق من مراكبهم نحو الثلاثائة مركب. فأحرقوا ما ثقل عليهم حملة من المنجنقات وغيرها.

وبلغت النفقة من صلاح الدين على هذه النوبة ألف ألف دينار مصرية، وكان يقول: مارأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

وورد كتاب نور الدين إلى العاضد يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط، وكان صلاح الدين سير إليه يشره برحليهم، وسير إليه العاضد يستقبله من الأتراك خوفاً منهم ويطلب الاقتصار على الملك الناصر صلاح الدين، فتضمن كتابه مدح الأتراك والثناء عليهم.

وفيها أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يبعث إليه بأبيه نجم الدين أيوب بن شاذي، فأرسله إليه في عسكر، وسار معه كثير من التجار ممن له هوى في مصر وغرض في صلاح الدين. فخرج ابنه صلاح الدين إلى لقائه ومعه الخليفة العاضد إلى صحراء الإهليلج خارج باب الفتوح ولقيه هناك، ولم تجر العادة بخروج الخليفة إلى لقاء أحد، وذلك في رابع شهر رجب، ولقبه العاضد بالملك الأوحد، وزينت القاهرة ومصر لقدمه فكان من الأيام المذكورة ، وبالع العاضد في احترامه والإقبال عليه. ونزل اللؤلؤة.

وكان سبب تجهيز الملك العادل نور الدين لنجم الدين أيوب كثرة ورود مكاتبة الخليفة المستنجد بالله العباسي عليه من بغداد بمعاتبته على تأخير إقامة الخطبة العباسية بمصر، فوالى نور الدين كتابة الملاحظات إلى صلاح الدين يأمره بذلك، وهو يعتذر إليه من ترك الخطبة بما يخافه

من المصريين . فوردت رسل المستنجد إلى دمشق بالاستحثاث والعزم على إقامة الخطبة بمصر ولابد ، فرأى نور الدين أن مثل هذا المهم لا يقوم به إلا نجم الدين أيوب، وكان يتولى قلعة بعلبك، فأرسل إليه وقرر معه الأمر وسيره.

وكان وصوله إلى القاهرة لست بقين من رجب، وقيل في جمادى الآخرة، فقررت له ولاية الإسكندرية وولاية دمياط والبحيرة. وأقطع الأمير فخر الدين شمس الدولة توران شاه، ابن والد الملوك الملك الأفضل نجم الدين أيوب، قوص وأسوان وعيناب، وكانت عبرتها يومئذ في تلك السنة مائتي ألف دينار وستة وستين ألف دينار، فاستتاب عنه في قوص الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار.

فيها ثار الأمير عباس بن شاذي بمرج بني تميم^(١٥٨) من أعمال قوص، ومنع رسلان دغمش المتوجه لجباية خراج قوص من التوجه، واستباح عسكره.

وفيها أبطل صلاح الدين الأذان « بحى على خير العمل محمد وعلي خير البشر»، فكانت أول وصمة دخلت على الدولة، ثم أمر أن يذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون: أبو بكر، وعمر، وعثمان، ثم علي، وذلك يوم الجمعة لعشر مضمين من ذي الحجة. ثم أمر أن يذكر العاضد في الخطبة بكلام التلبس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك. لاغير.

وفي يوم الاثنين، بعد طلوع الشمس، الثاني عشر من شوال جاءت زلزلة عظيمة مهولة بدمشق سقط منها بعض شرف الجامع الأموي وتشقق رأسا المنارتين الشرقية والغربية، وكانت المنارة الشمالية تهتز اهتزاز السعفة في الريح العاصفة، ثم جاءت زلزلة أخرى بعد ساعة، ثم جاءت

جاءت زلزلة ثالثة بعد العصر، وأثرت هذه الزلزلة آثاراً شنيعة بحلب، وبعلبك، وحمص، وحمّة، وشيزر، وكفر طاب، وتل بارين، والمعرة، وتل باشر، وعزاز، وأفامية، وأبو قبيس، والمنيطرة، وحصون الباطنية بأسرها، وامتدت إلى الجزيرة والموصل، ونصيبين، وسنجار، وديسر، وماردين، والرها، وحران، ورأس العين، والرقّة، وقلعة جعبر، وقلعة نجم، وبيالس، ومنبج، وبزاعا، وعين تاب، وحمّارم، وأنطاكية، وما خلفها من الثغور، وبيروت وأطرابلس، وعيرقة، وطرطوس، وجبلّة، والمرقب، واللاذقية، وعكا، وصور، وغيرها، فمنها ما دمر بأسره ومنها ما ذهب أكثره ومنها ما ذهب بعضه، ومنها ما تشعث. وهلك بحلب عالم كثير من الناس وبعلبك، ولم يهلك بدمشق غير واحد أصابته قطعة من حجر فسقط على درج جيرون فمات، وجاءت بدمشق زلازل في عدة ليالي وأيام إلى يوم الجمعة عاشر ذي القعدة.

فيها ولي القاضي المفضل أبو القاسم هبة الله بن كامل قضاء القضاة في ذي الحجة، فرتب صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري بحكم القاهرة وابن كامل بحكم مصر.

سنة ست وستين وخمسة

فيها رفع صلاح الدين جميع المكوس بديار مصر وأبطلها.

وفيها أمر بهدم المعونة بمصر فهدمت، وعمرها مدرسة للشافعية، ولم يكن قبل ذلك بديار مصر مدرسة لأحد من الفقهاء فإن الدولة كانت إسماعيلية، وهذه المدرسة بجواز جامع عمرو بن العاص وعرفت أخيراً بالمدرسة الشريفيّة، وهي أول مدرسة عمّرت بمصر لإلقاء العلم، وأنشأ دار العزل مدرسة للملكية بجواز الجامع أيضاً، وتعرف اليوم هذه المدرسة بالقمحية.

وفيها عزل صلاح الدين قضاء مصر من الشيعة، وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الشافعي، وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر بعد ما أحضره من المحلة، وخلع عليه في يوم الجمعة التاسع عشر جمادى الآخرة، فعزل من كان بها من القضاة واستناب عنه قضاة شافعية. ومن حينئذ اشتهر مذهب الشافعي، ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما، واختفى مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية، وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره.

وفيها ابتداء صلاح الدين في غزو الفرنج، فجمع الجنود والعساكر، وخرج في أحسن زري إلى بلاد عسقلان والرملة فشن الغارات عليها، وهجم ريبض مدينة غزة، وواقع ملك الفرنج على الداروم فقل جمعته وقتل منه كثيراً من الفرنج، ونجا ملكهم بحشاشته. وعاد صلاح الدين مظفراً غانماً.

ثم خرج في النصف من ربيع الأول ومعه مراكب مفصلة على الجمال، فسار إلى أيلة، وكان بها قلعة منيعة قد ملكها الفرنج، فألقى المراكب المحمولة معه بعد إقامتها وإصلاحها في البحر، وشحنها بالرجال والسلاح، وضايق قلعة أيلة في البر والبحر حتى افتتحها في العشرين من ربيع الآخر، وقتل من بها من الفرنج، وسلمها لثقات من أصحابه أقامهم فيها وقواهم بالسلاح والميرة ونحو ذلك.

ووردت عليه قافلة أهله فسار بهم إلى القاهرة، ودخلها في سادس عشرين جمادى الأولى. ثم سار إلى الإسكندرية لمشاهدة سورها وترتيب أمورها، فدخلها وأمر بإصلاح السور والأبراج، فعمر ما تهدم منه.

وفيها اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب منازل العز بمصر، في النصف من شعبان، وجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها عدة أماكن، منها الروضة تجاه مصر.

وفيهما خرج الأمير شمس الدولة توران شاه إلى بلاد الصعيد، وأوقع بالعربان، وغنم منها غنائم تجل عن الوصف، وعاد إلى القاهرة.

وفيهما ابتداء صلاح الدين بعمارة السور الجديد على القاهرة.

وفيهما كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه، وانكفت أمراء المصريين عن التصرف ومنعوا من كل شيء، فبسطوا ألسنتهم بالقول مع ما عليه صلاح الدين وأصحابه من التعامل في نحو آثار الدولة الفاطمية وإزالة رسومها، وخلع العاضد وقتله، والدعاء للخليفة العباسي، فلما رأى أمره قد قوي وأوتاد دولته قد تمكنت من البلاد عزم على إظهار ما يخفيه، فواعد أمراء الشاميين على أن يمضوا إلى بيوت الأمراء المصريين في الليل، ويقف كل أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر، فإذا خرج للخدمة قبض عليه واحتاط على داره وما فيها وأخذه لنفسه.

فأصبحوا واقفين على منازل الأمراء المصريين بأجنادهم، فما هو إلا أن يخرج الأمير من منزله ليصير إلى الخدمة على عادته فإذا بالأمير الشامي الذي قد عين له وقد قبض عليه وأوثقه، وهجم بمن معه على داره فملكها بجميع ما تحتوي عليه، وما يتعلق بصاحبها وينسب إليه من أهل ومال وخيول وعبيد وجوار، وماله من إقطاع، فلم ينتشر الضوء حتى علت الأصوات وارتفعت الضججات وثار الصياح من كل جانب، وصار الأمراء الشاميون في سائر نعم أمراء مصر، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم، فال أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بواباً على الدار التي كان يسكنها، وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها، وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعاً له، ونحو ذلك من أنواع الهوان.

وبلغ ذلك العاضد فشق عليه وأرسل إلى صلاح الدين يسأله عن سبب القبض على الأمراء، فبعث إليه بأن هؤلاء كانوا عصاة لأمرك والمصلحة قتلهم وإقامة غيرهم ممن يمثل أمرك. فسكت.

وتقوى صلاح الدين وعظم أمره، وذهب من كان يخشاه ويخافه، وأخرج أكثر إقطاعات الأجناد بمصر، وزاد الأمير شمس الدولة على إقطاعه ناحية بوش ودهشور والمنوفية وغير ذلك. وانحل أمر العاضد.

فيها قبض صلاح الدين على جميع بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده، بحيث لم يبق له شيئاً، وقبض على القصور وسلمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، وهو يومئذ زمام القصور من بعد قتل مؤتمن الخلافة، وصار له في القصر موضع، فلا يدخل شيء من الأشياء إلى القصر ولا يخرج منه إلا بمرأى منه ومسمع، وضيق على أهل القصر حتى قبض في هذه الأيام على جميع ما فيها، وصار العاضد معتقلاً تحت أيديهم.

وفيها أمر صلاح الدين بتغيير شعار الفاطميين، وأبطل ذكر العاضد من الخطبة وكان الخطيب يدعو للإمام أبي محمد، فتخاله العامة والروافض العاضد وهو يريد أبا محمد الحسن المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين الخليفة، ثم أعلن بالعزم على إقامة الخطبة العباسية.

وفيها مات الشيخ الموفق يوسف بن محمد أبو الحجاج، ابن الخلال، كاتب الدست وفي يوم الجمعة سلخ ذي الحجة عزم صلاح الدين على الإعلان بالأمر وكشف الغطاء فأحجم الخطباء عن ذلك تقية وحذراً، فانتدب لذلك رجل من أهل المغرب يقال له اليسع بن عيسى بن حزم ابن عبد الله بن اليسع أبو يحيى العافقي الأندلسي، فقصده المنبر مستعداً من الحديد بما يدفع عن نفسه إن آزاده أحد بسوء، فخطب ودعا

للخليفة أبي محمد الحسن المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وذكر نسبه إلى العباس، وقيل بل كان ذلك في السنة الآتية (١٥٩).

سنة سبع وستين وخمسمائة

في أول المحرم نسخ منشور بنقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية لخلو هذه السنة من نوروز. ومنذ نقلت السنة في أيام الأفضل أمير الجيوش، كما تقدم ذكره، لم تنقل، وانسحب الأمر حتى تداخلت السنون، وصار التفاوت بين العربية والقبطية سنتين.

وفي رابعه جلس العاضد بعد الإرجاف بأنه اثنان في رمضه (١٦٠)، فشوه على ما حقق الإرجاف من ضعف القوى وتخاذل الأعضاء وظهور الحمى، وقيل إنها تفشت بأعضائه. وأمسك طبيبه المعروف بابن السيد عن الحضور إليه، وامتنع من مداواته، وخذله مساعدة عليه للزمان، وميلا مع الأيام.

وفيهما نزل نجم الدين أيوب بجماعة معه إلى الجامع وأمر الخطيب ألا يذكر العاضد، وقال إن ذكرته ضربت عنقك، فقال لمن أخطب؟ فقال للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، فلما خطب لم يذكر العاضد ولا غيره، بل دعا للأئمة المهديين والملك الناصر. فقيل له في ذلك، فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، وفي الجمعة الثانية أفعل ما يجب فعله وأذكره، فلما بلغ العاضد ذلك قال في الجمعة الأخرى يعينون اسم الرجل المخطوب له. فلما كانت الجمعة الثانية، وهي سابعه، خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله. وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة للفاطميين.

وذلك أنه لما ثبتت قدم صلاح الدين بالديار المصرية وأزال المخالفين له، وضعف أمر الخليفة العاضد بقتل رجاله وذهاب أمواله، وصار الحكم على قصره قراقوش، طواشي أسد الدين، نيابة عن صلاح الدين، وتمكنت عساكر نور الدين من مصر - طمع في أخذها. وكتب إلى صلاح الدين - وفي ظنه وظن جميع عساكره أن صلاح الدين إنما هو نائب عنه في مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه - يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للمستضيء العباسي. فاعتذر بالخوف من قيام المصريين عليه وعلى من معه لميلهم - كان - إلى الفاطميين، ولأنه خاف من قطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء أن يسيرنور الدين إلى مصر وينزعه منها. فلم يقبل منه نور الدين وألح عليه وألزمه إلزاماً لم يجد مندوحة عن مخالفته، وساعدته الأقدار بمرض العاضد المرض الذي غلب على الظن أنه لا يفيق منه، فجمع صلاح الدين أصحابه إليه واستشارهم في ذلك، فاختلّفوا، فمنهم من أشار بقطع خطبة العاضد، ومنهم لم يشر بها.

وكان قد دخل إلى مصر رجل يعرف بالأمر العالم، يزعم أنه عباسي فاطمي من أيام الصالح بن رزيك، وما زال يتنقل في قوالب الانتساب وأساليب الاكتساب، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام وأن أحداً لا يتجاسر يخطب للمستضيء قال: أنا ابتدئ الخطبة له. فصعد يوم الجمعة المنبر بالجامع العتيق وخطب للمستضيء قبل الخطيب فلم ينكر أحد عليه ولا تحرك له، فتيقن حينئذ صلاح الدين ذهاب قوة القوم ومن وال يغريهم، فتقدم إلى جميع الخطباء بأن يخطبوا في الجمعة الآتية للمستضيء، وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر، فكان الذي ابتدأ بالخطبة للمستضيء في الجامع العتيق بمصر أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن الحسين بن أبي المضاء الدمشقي. وكان قدم به أبوه إلى مصر فنشأ بها وقرأ الأدب، ورحل إلى دمشق وبغداد وتفقه، وعاد إلى مصر، واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين فولاه الخطابة بمصر، ثم بعثه رسولا إلى بغداد، فمات بدمشق، وولى الخطابة بعده الشيخ أبو إسحاق العراقي.

فكتم أهل العاصد ذلك عنه لشدة ما به من المرض، وكان ذلك من أعجب ما يؤرخ، فإن الخطبة بديار مصر أول ما خطب بها للمعز لدين الله، أول خلائف الفاطميين بمصر، عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو، كما تقدم ذكره، وكان الذي قطع خطبة العاصد، آخر خلائفهم، رجل عباسي، ومثله في الغرابة أن الفاطميين لم يتمكنوا من الديار المصرية حتى قصدوها بعساكرهم مرتين مع القائم بن المهدي ولم يفتح، وفتحوها في الثالثة على يد جوهر، وكذا حصل في زوالهم من مصر فإن شيركوه قصد مصر مرتين ورجع، ثم قصدتها المرة الثالثة واستقر بها حتى أزال عساكره الدولة.

في ثامن أمر صلاح الدين بركوب عساكره كلها قديمها وجديدها، بعد أن تكامل سلاحهم وخيولهم، وخرج لعرضهم، وهي تمر عليه موكباً بعد موكب وطلباً بعد طلب - والطلب بلغة الغز هو الأمير المقدم الذي له علم معقود، وبوق مضروب، وعدة من الجند ما بين مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارس - واستمر طول النهار في عرضهم، وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلباً والغائب منها عشرون طلباً، ووتقدير العدة أربعة عشر ألف فارس.

في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرم، عشية يوم عاشوراء، نفذ حكم الله المقدور، وقضاؤه الذي يستوي فيه الأمر والمأمور، في العاصد لدين الله، في الثلث الأول من ليلة الاثنين يوم عاشوراء، وقامت عليه الواعية، وعظمت ضوضاء الأصوات النادية، حتى كأن القيامة قد قامت. وكان بين وضع اسمه من أعواد المنابر ورفع جسمه على أعواد النعش ثلاثة أيام، فاعتنى به صلاح الدين عن أن يتذلل أو يهان بعد الموت، وكان من معه من الأمراء يريدون ذلك، وأمر بكف الأيدي واعتقال الألسنة عن التعرض إليه بسوء، وركب معزياً لأهل القصر، وأمر بتجهيزه وقد أظهر الكآبة والحزن وأجرى دمعه، ووعد أهله بحسن

الخلافة على أيتام العاضد وهم ثلاثة عشر ولداً: أبو الحسن، وأبو سليمان داود، وأبو الحجاج يوسف، وأبو الفتوح، وأبو إسحاق إبراهيم، وأبو الفضل جعفر، وأبو داود موسى، وأبو زكريا يحيى، وعبد القوي، وعبد الكريم، وعبد الصمد، وأبو اليسر، وأبو القاسم عيسى.

وأمر بإنشاء الكتب إلى البلاد بذكر وفاة العاضد، وأن الخطبة استقرت للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين العباسي، وألا يخوض أحد في شأن العاضد ولا يطعن في سلطان، وكتب إلى نور الدين بموت العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء كما أشار به مع ابن (أبي) عصرون.

وفي حادي عشره عمل الباقي بالإيوان، وحضر السلطان صلاح الدين، وكان محفلاً حافلاً وجمعاً حاشداً، فيه خلق من الزوايا وأهل التصوف وغيرهم، واهتم بما يحمل من أطعمة العزاء. وكانت النفوس متطلعة إلى إقامة خليفة بعد العاضد من أهله يشار إليه بالأمر، فلم يرض ذلك صلاح الدين.

ومات العاضد وعمره إحدى وعشرون سنة غير عشرة أيام، منها في الخلافة إلى أن أعيدت دولة بني العباس في مستهل المحرم سنة سبع وستين وخمسة عشر سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً، وكان كريماً سمحاً لطيفاً، لين الجانب، يغلب عليه الخير ويتقاد إليه، وكان أسمر حلو السمرة كبير العينين أزج الحاجيين، في أنفه خنس وفي منخرية انتشار، وفي شفثيه غلظ.

وترك العاضد من الولد: الأمير داود، والأمير عليا، ويقال أبوعلي، والأمير عبد الكريم، وقيماً، وموسى، وعبد القوي، وجعفر، وعبد الصمد، وأبا الفتوح، وحيدرة، وإبراهيم، ويحيى، وجبريل، وعيسى، وسليمان، ويوسف (١٦١) غير أن أيامه كانت ذات مخاوف وتهديدات، وقاسى شاوراً وبلوائه ومخاطلاته، ثم محاصرة الفرنج ومضايقته، وفي أيامه

احترقت مصر وذهبت أموال أهلها، وزالت نعمتهم بالحريق والنهب، وكان متغالياً في مذهبه شديداً على من خالفه، ولم يكن فيمن ولي من أبائه من أبوه غير خليفة سواه، ومن قبله الحافظ، وما عداهما فلم يل منهم أحد الخلافة إلا من كان أبو خليفة.

وقال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء: اكتب لنا ورقة تذكر فيها الألقاب تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب، فكتب لهم ألقاباً كثيرة، وآخر ما كتب في الورقة العاضد، فاتفق أن آخر من ولي منهم تلقب بالعاضد، وهذا من عجيب الاتفاق.

قال: وأخبرني أحد علماء المصريين أيضاً أن العاضد رأى في آخر دولته في منامه كأنه بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغته، فلما استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعض معبري الرؤيا وقص عليه المنام، فقال له: ينالك مكروه من شخص هو مقيم في هذا المسجد، فطلب والي مصر وأمره يكشف عمّن هو مقيم في المسجد المذكور، وكان العاضد يعرفه، فمضى الوالي إلى المسجد فرأى فيه رجلاً صوفياً، فأخذه ودخل به على العاضد، فلما رآه سأله من أين هو، ومتى قدم البلاد، وفي أي شيء قدم، وهو يجاوبه عن كل سؤال، فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه أعطاه شيئاً وقال له: يا شيخ ادع لنا، وأطلق سبيله، فنهض من عنده وعاد إلى المسجد، فلما استولى صلاح الدين وعزم على القبض على العاضد واستفتى الفقهاء أفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة وفساد الاعتقاد وكثرة الوقوع في الصحابة، وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الصوفي المقيم في المسجد - وهو نجم الدين الخبوشاني - فإنه عدد مساوىء القوم وسلب عنهم الإيمان، وأطال الكلام في ذلك، فصحت بذلك رؤيا العاضد.

وحكى الشريف الجليس أن العاضد طلبه يوماً، فلما دخل عليه رأى عنده مملوكين من الترك عليها أقبية، فسأله عنهما، فقال له: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا، فلما دخل الغز كانت هيئتهم كهيئة هذين المملوكين.

ومن العجيب أنه لم يمت بالقصر منهم إلا المعز أولهم بمصر والعاضد آخرهم، وعدتهم أربعة عشر دفنوا كلهم بالتربة في مجلس، فلو اتفق أنه مات آخر لم يوجد له عندهم مكان يدفن فيه لامتلائه بقبور الأربعة عشر، وهذا أيضاً من عجيب أمرهم.

ولما مات العاضد استولى صلاح الدين على جميع ما كان في القصر، فإن قراقوش قام بحفظه، فلم يجد فيه كثير مال، لكنه وجد فيه من الفرش والسلاح والذخائر والتحف ما يخرج عن الإحصاء، ووجد فيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله، ومن الجواهر ما لا يوجد عند غيرهم مثله، منها جبل ياقوت زنته سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً، ونصاب زمرد طوله أربعة أصابع في عرض كبير، ولؤلؤ كثير، وإبريق من حجر مائع يسع مائه رطل ماء، وسبعمئة يتيمة جوهر، والطبل الذي صنع لإزالة القولنج، وكان بالقرب من موضع العاضد، فلما احتاطوا بالقصر ظنوه عمل للعب فسخروا من العاضد، وضرب عليه إنسان فضرط فتضحك من حضر منهم، ثم ضرب عليه آخر فضرط، ثم آخر من بعد فضرط، حتى كثر ذلك فألقاه من يده فتكسر، وقيل للسلطان عليه وأنه عمل للقولنج فندم على كسره.

ووجد من الكتب النفسية ما لا يعد، ويقال إنها كانت ألف ألف وستائة ألف كتاب، منها مائة ألف مجلد بخط منسوب، وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، فباع السلطان جميع ذلك، وأقام البيع فيها عشر سنين.

ونقل أهل العاضد وأقاربه إلى مكان بالقصر، ووكّل بهم من يحفظهم، وأخرج سائر ما في القصر من العبيد والإماء فباع بعضهم وأعتق بعضهم ووهب منهم، وخلا القصر من ساكنه كأن لم يكن بالأمس.

وكانت مدة الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر منذ دعي للمهدي عبيد الله (١٦٢) بقرادة من القيروان إلى حين قطعت من ديار مصر مائتي سنة وتسعاً وستين سنة وسبعة أشهر وأياماً، وأولها لإحدى عشرة بقية من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين، وآخرها سلخ ذي الحجة سنة ست وستين وخمسائة، منها بالمغرب إلى حين قدوم القائد جوهر إلى مصر إحدى وستون سنة وشهران وأيام، ومنها بالقاهرة ومصر مائتا سنة وثمانين سنة. وما أعجب قول المهذب ابن الزبير في مدح العاضد:

بـل عباد لـلدينـا الجمال

وبـدا على الـدينـا الجلال

أصبحت في الخلفاء را

بـع عشرهم، وهـو الكمال

فإن الشيء إذا كمل بدأ نقصه، وبالعاضد تم ملك الفاطميين وزال بموته.

قال ابن سعيد: ولم يسمع فيما بكيه به دولة بعد انقراضها أحسن من قصيدة عمارة بن علي اليماني الذي قتله صلاح الدين، وهي:

رميت ياد هر كف المجد بالشلشل

وجيدة بعد حسن الحلبي بالعطل

سعيت في منهج الرأي العثوري، فإن
قدرت من عشرات الدهر فاستقل
جدعت مارنك الأقنى، فأنفك لا
ينفك ما بين قرع السن والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سقيت مهلاً، أما تمشي على مهل !
لهفي ولهف بنبي الأمال قاطبة
على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر، فأولتني خلافتها
من المكارم ما أرى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألف، ومن
كما لها أنها جاءت ولم أسبل
وكنيت من وزراء الدست حين سما
رأس الحصان بهادييه على الكفل
ونلت من عطاء الجيش مكرمة
وخلة خرسست من عارض الخلل
يعاذلي في هوى أبناء فاطمة
لك الملاماة إن قصرت في عذلي
بالله زرساحة القصرين، وأبك معي
عليهما، لا على صفيين والجملة
وقبل لأهلها: واللهم ما التتمت
فيكم جراحني، ولا قرحي بمن دمل
ماذا عسى كانت الإفرنج فاعلة
في نسبل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتكم عليها، واسم جدكم
محمد، وأبوكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود، وكانت قبلة القبلة

فملت عنها بوجهي خوف متقد
من الأعادي، ووجهه السود لم يمل
أسلت من أسف دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على مآثرات من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أضحت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجميل
وأول العام والعيدين كم لكم
فيه من من ويل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغديسركما
يهتز ما بين قصر يكم من الأسنل
والخيل تعرض في وشي وفي شية
مثل العسرايس في حل وفي حلل
ولا هلمت قري الأضياف من سعة الـ
أطباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عمتم به الأقصى من الملل
كانت روايتكم للأنس والجن
والضيف المقيم، وللطازي من الرسل
ثم الطراز بتيس الذي عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول

وللجوامع من أحبا سكرم نعم
لمن تصددر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا فمقلها
منكم فأضححت بكم محلولة العقل
والله لا فإز يوم الحشر مبغضكم
ولا نجامن عذاب الله غير ولي
ولا سقي الماء من حر ومن ظمأ
من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التي خلقت
من خان عهد الإمام العاضدين علي
أئمتي، وهدي، والذخيرة لي
إذا ارتهنت بما قدمت من عملي
تالله لم أوفهم في المدح حقهم
لأن فضلهم كالأبواب الهطل
ولو تضاعفت الأقوال واستبقت
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة هم، دنيا وأخرة
وجههم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى، ومصاييح السدجا، ومحل
الغيث إن ونست الأنواء في المحل
أئمة خلقوا نورا، فنورهم
من نور خالص نور الله لم يقل
والله لا زلت عن حبي لهم أبداً
ما أخرج الله لي في مدة الأجل (١٦٣)

ووجد على بعض جدران القصر مكتوباً:
يا هذه الدنيا عجبت لمولع
بك كيف أضحى في هواك يقاد
ما صح منك لآل أحمد موعد
فكيف يصح منك لغيرهم ميعاد

أمانعكم فهو وظل زائل
وصلاح ما أتت به فهو فساد

ذكر طرف من ترتيب الدولة الفاطمية

اعلم أن الدولة كانت إذا خلت من وزير صاحب سيف يتغلب عليها فإنه يجلس صاحب الباب في باب القصر المعروف بباب الذهب، وهو أحد أبواب القصر، ويقف بين يديه الحجاب والتقباء، وينادي مناد: يا أرباب الظلامات، فيحضر إليه أرباب الحوائج. فمن كان أمره مما يشافه به، نظر في أمره بمن يتعلق من القضاة أو الولاة، فيسير إلى ذلك رسالة بكشف ظلامته، فإن كان مع المتظلم قصة أخذها منه الحاجب، فإذا اجتمع معه عدة دفعها إلى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها، ثم تحمل منه إلى الموقع بالقلم الجليل لייسط ما أشار إليه الموقع بالقلم الدقيق، فإذا تكاملت حملت في خريطة إلى الخليفة فيوقع عليها، ثم أخرجت في الخريطة إلى الحاجب فيقف بها على باب القصر ويسلم لكل أحد توقيعه.

فإن كان في الدولة وزير صاحب سيف فإنه يجلس يومين في كل اسبوع في مكان معد له في القصر، ويجلس قبالة قاضي القضاة، وعن جانبيه شاهدان معتبران، ويجلس في جانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق ويليه صاحب ديوان المال، وبين يديه صاحب المال وأسفهلار العساكر، وبين أيديها النواب والحجاب على طبقاتهم.

وكان أجل الخدم صاحب الباب، وهو من الأمراء المطوقين، ثم الأسفهلار، وهو زمام كل زمام وإليه أمور الأجناد، ثم حامل سيف الخليفة أيام الركوب، ثم زمام الحافظة والأمرية، وهما أجل الأجناد.

وكانت ولاية الأعمال أجلها ولاية عسقلان، ثم ولاية قوص. ثم ولاية الشرقية، ثم ولاية الغربية، ثم ولاية الإسكندرية.

وكان قاضي القضاة ينظر في الأحكام الشرعية، فلما صارت الوزارة إلى أرباب السيوف كان يقلد القضاة نيابة عنه. والقاضي أجل أرباب العمام رتبة، وتارة يكون داعي الدعاة، وتارة تفرد الدعوة عنه، ويجلس في يومي الثلاثاء والسبت بزيادة جامع عمرو بن العاص، وله طراحة ومسند حرير والشهود حوله، وله خمسة من الحجاب اثنان منها بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم إليه، وله أربعة من الموقعين، ودواته بين يديه على كرسي محلى بفضة يحمل إليه من الخزائن ولها عامل بجار سلطاني في كل شهر. ويخرج إليه من إصطبل الخليفة بغلة شهباء، وهي مختصة به دون غيرها، ويكون عليها سرج محلى ثقيل ورادفتين من فضة، ومكان الجلد حرير.

وتخلع عليه الخلع المذهبة، فيسير بغير طبل ولا بوق إلا أن يضاف إليه الدعوة فإنه يسير حيثنذ بالطبل والبوق، فإن ذلك من رسوم الداعي مع البنود. فإن كان إنما خلع عليه لوظيفة القضاء فقط فإنه يسير بالقرى رجلاً حوله وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة، أو الخليفة والوزير إن كان ثم وزير صاحب سيف، ويركب معه يومئذ نواب الباب والحجاب ولا يجلس أحد فوقه ألبتة، ولا يمكنه حضور جنازة ولا عقد نكاح إلا بإذن، ولا يقوم لأحد من الناس إذا كان في مجلس الحكم، ولا ينشئ عدالة ألبتة إلا بإذن، فلا تثبت إذا أذن له في إنشائها لأحد حتى يزكيه عشرون عدلاً من عدول البلد بين مصر والقاهرة ويرضاه الشهود كلهم.

فإن كان في الدولة وزير سيف لا يخاطب حيثنذ من يتولى الحكم بقاضي القضاة فإنه من نعوت الوزير.

ويصعد القاضي إلى القصر في يومي الخميس والاثنين بكرة للسلام على الخليفة وله النواب، وإليه النظر في دار الضرب لتحرير العيار، ولا يصرف القاضي إلا بجنحة.

وكان في الدولة داعي الدعاة، ورتبته تلي رتبة قاضي القضاة، ويتزياً بزيه، ولا بد أن يكون عالماً بمذاهب أهل البيت، عليهم السلام، وله أخذ العهد على من يتقل إلى مذهبه، وبين يديه اثنا عشر نقيباً، وله نواب في سائر البلاد، ويحضر إليه فقهاء الشيعة بدار العلم ويتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة يقرأ في كل يوم اثنين وخميس بعد أن تحضر مبيضته إلى داعي الدعاة ويتصفحها ويدخل به إلى الخليفة فيتلوه عليه إن أمكن، أو يأخذ خطه عليه في ظاهره. ثم يخرج فيجلس على كرسي الدعوة بالإيوان من القصر، فيقرؤه على الرجال، ثم يخرج ليقراه على النساء، وله أخذ النجوى من المؤمنين بالأعمال كلها، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلاث، فيحملها إلى الخليفة.

كان متولي ديوان الإنشاء يخاطب بالأجل، يقال له كاتب الدست، وهو الذي يتسلم الكتب الواردة ويعرضها على الخليفة من يده، ثم يأمر بتنزيلها والجواب عنها. والخليفة يستشير في أكثر أموره ولا يحجب عنه شيء متى جاء، وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عنده، وجاريه في كل شهر مائة وعشرون ديناراً، مع الكسوة والرسوم، ولا يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكتابه إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء وفراشون ومرتبة هائلة، ومخاد ومسند، ودواة بغير كرسي وهي من أنفس الدوي، ولها أستاذ من خدام الخليفة يرسم حملها.

ولا بد للخليفة من جلس يذاكره ما يحتاج إلى علمه من كتاب الله وتجويد الخط ومعرفة الأحاديث، وسير الخلفاء ونحو ذلك، يجتمع به أكثر أيام الأسبوع، ويرسمه أستاذ محنك يحضر ثالثهما، فيقرأ ملخص

السير ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، ورتبته عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست، ويكون صحبته دواة محلاة. فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير وقرطاساً فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة، وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق، كما تقدم، ويجلس حال التوقيع على طراحة ومسند، وله فراشون من فراشي الخاص تقدم له ما يوقع عليه، ويختص به موضع من ديوان المكاتبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن.

ورأس أصحاب دواوين المال من يلي النظر على الدواوين وله العزل والولاية، وهو الذي يعرض الأوراق على الخليفة أو الوزير، ويعتقل من شاء بكل مكان، ويجلس بالمرتبة والمسند، وبين يديه حاجب من أسراء الدولة، وتخرج له الدواة بغير كرسي ويندب من يطلب الحساب، ويحث في طلب المال ومطالبة أرباب الضمانات.

وكان لهم ديوان التحقيق، ومقتضاه المقابلة على الدواوين، وملتويه الخلع والرتبة والحاجب، ويلحق بناظر الدواوين.

وديوان المجلس، وفيه علوم الدولة، وهو أصل الدواوين، وفيه عدة كتاب لكل منهم مجلس معد ومعتاد، وصاحب هذا الديوان هو الذي يتحدث في الإقطاعات، ويخلع عليه، وهو لاحق بديوان النظر، ويجلس بالمرتبة والمسند والدواة والحاجب.

والتوقيع بالقلم الجليل يسمى الخدمة الصغرى، وملتولها الطراحة والمسند بغير حاجب، بل ويندب له فراش لترتيب ما يوقع عليه، ولا يوقع الخليفة بيده إذا كان وزيره صاحب سيف إلا في أربعة مواضع: إذا رفعت إليه قصة وقع عليها: «يعتمد ذلك إن شاء»، أو كتب بجانبها الأيمن «يوقع بذلك»، فيخرج إلى صاحب ديوان المجلس دون غيره

فيوقع جليلا، ويدخل بها إلى الخليفة ثانيا فيضع علامته عليها، وكانت علامتهم كلهم « الحمد لله رب العالمين»، ثم يخرج بها فتثبت في الدواوين. أو يوقع في مسامحة، أو تسويغ، أو تحييس ما مثاله: « قد أنعمنا بذلك، أو قد أمضينا ذلك»، فإذا أراد الخليفة الاطلاع على شيء ووقع ليخرج الحال في ذلك، فإذا خرج الحال عاد إليه ليعلم عليه، فإن كان الوزير صاحب سيف وقع الخليفة بخطه: «وزيرنا السيد الأجل، واللقب المعروف به، أمتعنا الله ببقائه، يتقدم بإنجاز ذلك إن شاء الله»، فيكتب الوزير تحت خطه: «يمثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه»، ثم يثبت في الدواوين.

ولديوان الجيش مستوف مسلم له غيره، ويجلس بطراحة لحركة العرض والحلي والشيات. وفي هذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد، فإذا عرض الجندي حلي وذكرت صفات فرسه، ولا يثبت له إلا الفرس الجيد، ولا يثبت له برذون ولا بغل، ويقف بين يدي هذا المستوفي نقيب الأجناد لإنهاء أمور الأجناد، وفسح للأجناد في آخر الدولة أن يقايض بعضهم بعضاً.

وديوان الرواتب فيه أسماء كل مرتزق في الدولة ضمن له جار وجراية، وكتبه يجلس بطراحة وتحت يده عشرة كتاب، وترد إليه التعريفات من سائر الأعمال باستمرار ما هو مستمر، ومباشرة من يستجد، وموت من مات، ليوجب استحقاقه.

وفي هذا الديوان عدة عروض. أولها: راتب الوزير وهو في الشهر خمسة آلاف دينار، ولكل من أولاده وإخوته من ثلاثمائة دينار إلى مائتي دينار. وقرر لشجاع بن شاور خمسمائة دينار، ولكل من حواشي..... من خمسمائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، وذلك سوى الإقطاعات.

وثانيهما : حواشي الخليفة ، وأولهما الأستاذون المحنكون، وهم : زمام القصر، وصاحب بيت المال، وحامل الرسالة، وصاحب الدفتر، وشاد التاج الشريف، وزمام الأشراف الأقارب، وصاحب المجلس، ولكل منهم مائة دينار في الشهر، ولمن يلي هؤلاء يتناقص عشرة، وهكذا إلى من يكون جاريه عشرة دنانير، وعدة هؤلاء ألف فيما فوقها، وهم خصيصون ، ولطبيبي الخاص مائة دينار في الشهر، ولعدة من الأطباء برسم أهل القصر كل منهم عشرة دنانير.

ثالثهما: أرباب الرتب بحضرة الخليفة، وأولهم كاتب الدست الشريف، وجاريه في الشهر مائة وخمسون ديناراً، ولكل من كتابه ثلاثون ديناراً ولتولي مجالسة الخليفة والتوقيع بالقلم الدقيق في المظالم مائة دينار، ولصاحب الباب مائة وعشرون ديناراً، ولكل من حامل السيف وحامل الرمح سبعون ديناراً، ولكل من أزمة العساكر والسودان مائتان وخمسون ديناراً إلى أربعين ديناراً إلى ثلاثين ديناراً.

رابعها: قاضي القضاة ، وله في الشهر مائة دينار، ولداعي الدعاة مائة دينار، وكل من قراء الحضرة من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر إلى عشرة دنانير، ولكل من خطباء الجوامع من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير، ولكل من الشعراء من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير.

خامسها: أرباب الدواوين، وأولهم متولي ديوان النظر، وله في الشهر سبعون ديناراً، ولتولي ديوان التحقيق خمسون ديناراً، ولتولي ديوان المجلس أربعون ديناراً، ولصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون ديناراً، ولكاتبه خمسة دنانير، ولتولي ديوان الجيش أربعون ديناراً، وللموقع بالقلم الجليل ثلاثون ديناراً، ولكل من أصحاب دواوين المعاملات عشرون ديناراً، ولكل معين عشرة دنانير وفيهم من له سبعة وخمسة.

سادسها: المستخدمون بالقاهرة ومصر في خدمة الوالين، لكل منهم خمسون ديناراً، ولحماة الأهرام، والمناخات، والجوالي والبساتين والأماك لكل منهم من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر إلى عشرة إلى خمسة.

سابعها: الفراشون برسم خدمة القصور، ومنهم برسم خدمة الخليفة خمسة عشر، منهم صاحب المائدة وحامي المطابخ، وجاريهم من ثلاثين ديناراً إلى ما حولها سوى الرسوم، ويليهم الرشاشون ونحوهم، وعدتهم ثلاثمائة فراش مولاهم أستاذ، وجارى كل منهم من عشرة دنائير إلى خمسة.

ثامنها: صبيان الركاب وهم ينفون على ألفي رجل، ولهم اثنا عشر مقدما أكبرهم مقدمو الركاب، ومقدم المقدمين منهم هو صاحب ركاب الخليفة الأيمن، ولكل من المقدمين في الشهر خمسون ديناراً، وصبيان الركاب أربع جوق، جوقة لكل منهم في الشهر عشرون ديناراً، ويليهم من له خمسة عشر ثم عشرة ثم خمسة دنائير، وهم يندبون إلى الأعمال ويحملون المخلقات لركوب الخليفة في الأعياد والمواسم.

وكان لنقيب الأشراف اثنا عشر نقيباً، ويخضع عليه فيسير بالطبل والبوق والبنود مثل الأمراء، وله ديوان ومشارف وعامل ونائب، وجاريه في الشهر عشرون ديناراً، ولمشارف ديوانه عشرة دنائير، ولنائبه في النقابة ثمانية دنائير، وللعامل خمسة دنائير.

وللمحتسب عدة نواب بالقاهرة ومصر وسائر الأعمال، ويجلس بجامع القاهرة ومصر يوماً بعد يوم، وتطوف نوابه على أرباب المعاش، ويخضع على المحتسب ويقرأ سجله على منبر جامع عمرو بن العاصي.

وكانت لهم خدمة يقال لها النيابة، ومتوليها يتلقى الرسل الواردين من الملوك، وكانت خدمة جلييلة، لمتوليها نائب، ومن خواصه أنه ينعت أبدأً

كل من يليها بغذي الملك، وله النظر في دار الضيافة، ويعرف هذا اليوم بالمهمندار. وكان له في الشهر خمسون ديناراً وفي كل يوم نصف قنطار خبز مع بقية الرسوم.

والخدمة في ديوان الصعيد عنده عدة كتاب، ولأسفل الأرض ديوان، وللثغور ديوان، وللجوالي ديوان، وللمواريث ديوان، ولديوان الخراجي والهلالي عدة دواوين، منها ديوان الرباع، وديوان المكوس، وديوان الصناعة، وديوان الكراع وفيه معاملات الإصطبلات وما فيها، وديوان الأهراء، وديوان المناخات، وديوان العمائر ومحله بصناعة مصر لإنشاء الأسطول ومراكب الغلات السلطانية والأحطاب، وكانت تزيد على خمسين عشارياً وعشرين ديارساً منها عشرة خاصة برسم ركوب الخليفة أيام الخليج والبقية برسم ولاة الأعمال تجرد إليهم وينفق عليها من الديوان، وديوان الأحباس.

وكانت عادتهم إذا انقضى عيد النحر عمل الاستيثار ويثبت فيه جميع ما يشتمل عليه مصروف تلك السنة من عين وورق وغلة وغيرها مفصلاً بالأسماء، وأولهم الوزير حتى ينتهي إلى أرباب الضوء، ثم يعمل في ملف حرير بشراية حرير لشده، وكان يبلغ في السنة ما يزيد على مائة ألف دينار عيناً ومائتي ألف درهم فضة وعشرة آلاف إردب غلة، ويعرض على الخليفة، فيستوعبه، ويشطب على بعضه وينقص قوماً ويزيد قوماً ويستجد آخرين بحسب ما يعين له. فيحمل الأمر على الشطب. وعمل مرة في أيام المستنصر بالله، فوقع بظاهره: «الفقر مر المذاق، والحاجة تذلل الأعناق، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق، فليجروا على رسومهم في الإطلاق، (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)» (النحل ٩٦).

وكان من عادتهم إخراج الكسوة في كل سنة لجميع أهل الدولة من صغير وكبير في أوقات معروفة، فبلغت كسوة الصيف والشتاء في السنة ستائة ألف دينار ونيف.

وكانوا يتأفقون في المآكل ، حتى إن الخادم والسائس من غلمانهم ينفق في كل يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين ديناراً لسعة أحوالهم.

وكانوا يفرقون في أول كل سنة دنانير يسمونها دنانير الغرة تبلغ خمسمائة دينار في السنة ، فيتبرك بها من يأتيه منها برسوم مقررة لكل أحد.

وإذا أهل رمضان لا يبقى أمير ولا مقدم إلا ويأتيه طبق لنفسه، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه أنواع الحلوى العجيبة الفاخرة.

وكانت خلعتهم ثمينة جداً يبلغ طراز الخلعة خمسمائة دينار ذهباً، ويختص الأمراء في الخلع بالأطواق والأساور الذهب مع السيوف المحلاة، ويتشرف الوزير عوضاً عن الطوق بعقد جوهر فكاكه خمسة آلاف دينار يحمل إليه، ويختص بلبس الطيلسان المقور.

ولا يركب الخليفة إلا بمظلة منسوجة بالذهب مرصعة بالجواهر.

وسياتي من إيراد جزيات تربيهم وحكاية أمور دولتهم عند ذكر خطط القاهرة إن شاء الله ما يعرفك مقدار ما كانوا فيه من أمور الدنيا وحقارة من جاء بعدهم. فله عاقبة الأمور.

ذكر ما عيب عليهم

لا شك في أن القوم كانوا شيعة يرون تفضيل علي بن أبي طالب على من عداه من الصحابة، وكانوا يتحلون من مذاهب الشيعة مذهب الاسماعيلية، وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وتنقلها في أولاده الأئمة المستورين إلى عبيد الله المهدي، أول من قام منهم بالمغرب وبقية الشيعة لا يقولون بإمامة إسماعيل، وينكرون عليهم ذلك أشد الإنكار.

وكانوا مع اتحالمهم مذهب التشيع غلاة في الرفض، إلا أن أولهم كانوا أكابر صانوا أنفسهم عما قرف به آخرهم. ثم إن الحاكم بأمر الله أكثر من النظر في العقائد وكان قليل الثبات سريع الاستمالة، إذا مال إلى اعتقاد شيء أظهره وحمل الناس عليه، ثم لا يلبث أن يرجع عنه إلى غيره فيريد من الناس ترك ما كان قد أمرهم به والمصير إلى ما استحسنته ومال إليه. واقترب به رجل يعرف (بأنوشتكين) الدرزي فأظهر مذاهب الباطنية، وقد كان عند أولهم منها طرف، فأنكر الناس هذا المذهب لما يشتمل عليه مما لم يعرف عند سلف الأمة وتابعيهم ولما فيه من مخالفة الشرائع.

فلما كانت أيام المستنصر وفد إليه الحسن بن الصباح، فأشاع هذا المذهب في الأقطار ودعا الكافة إليه، واستباح الدماء بمخالفته، فاشتد النكير، وكثر الصائح عليهم من كل ناحية حتى أخرجوهم من الإسلام ونفوهم عن الملة.

ووجد بنو العباس السبيل إلى الغض منهم لما مكنوا من البغض فيهم وقاسوه من الآلام بأخذهم ما كان بأيديهم من ممالك القيروان وديار مصر والشام والحجاز واليمن وبغداد أيضاً، فنفوهم عن الانتساب إلى علي بن أبي طالب، بل وقالوا إنها هم من أولاد اليهود، وتناولت الألسنة ذلك، فملئوا به كتب الأخبار.

ثم لما اتصل بهم الغز ووزر لهم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وهم من صنائع دولة بني العباس الذين ربوا في أبوابها وغدوا بنعمها ونشئوا على اعتقاد موالاتها ومعاداة أعدائها، لم يزدتهم قربهم من الدولة الفاطمية إلا نفوراً، ولا ملأهم إحسانها إليهم إلا حقداً وعداوة لها، حتى قووا بنعمتها على زوالها، واقتدروا بها على محوها.

وكانت أساسات دولتهم راسخة في التخوم، وسيادة شرفهم قد أنافت على النجوم، وأتباعهم وأولياؤهم لا يحصى لهم عدد، وأنصارهم وأعوانهم قد ملؤوا كل قطر وبلد، فأحبوا طمس أنوارهم، وتغيير منارهم، وإلصاق العار والقيح بهم، شأن العدو وعادته في عدوه.

فتفتن ، رحمك الله، إلى أسرار الوجود، وميز الأخبار كتميزك الجيد من النقود، تعثر إن سلمت من الهوى بالصواب. ومما يدللك على كثرة الحمل عليهم أن الأخبار الشنيعة، لا سيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام، لا تكاد تجدها إلا في كتب المشاركة من البغداديين والشاميين، كالمنتظم لابن الجوزي، والكامل لابن الأثير، وتاريخ حلب لابن أبي طي، وتاريخ العماد ابن كثير، وكتاب ابن واصل الحموي ، وكتاب ابن شداد، وكتاب العماد الاصفهاني، ونحو هؤلاء ، أما كتب المضربين الذين اعتنوا بتدوين أخبارها فلا تكاد تجد في شيء منها ذلك البتة. فحكم سلطان العقل، واهزم جيوش الهوى ، وأعط كل ذي حق حقه، ترشد إن شاء الله تعالى.

ذكر ما صار إليه أولادهم

ولما مات العاضد غسله ابنه داود^(١٦٤) وصلى عليه، وجلس على السدة، واستدعى صلاح الدين لبياعه، فامتنع، وبعث إليه: أنا نائب عن أبيك في الخلافة ولم يوصني بأنك ولي عهده، وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه في سادس شعبان سنة تسع وستين وخمسة، ونقله هو وجميع أقاربه وأهله إلى دار المظفر^(١٦٥) من حارة بروجوان في العشر الأخير من شهر رمضان، ووكل عليهم وعلى جميع ذخائر القصر، وفرق بين الرجال والنساء حتى لا يحصل منهم نسل، وأغلقت القصور، وتملكت الأملاك التي كانت لهم، وضربت الألواح على رباعهم وفرقت على خواص صلاح الدين كثير منها وبيع بعضها، وأعطى القصر الكبير

لأمرائه فسكنوا فيه. وأسكن أباه نجم الدين أيوب في اللؤلؤة على الخليج، وصار كل من استحسّن من الغز داراً أخرج صاحبها منها وسكنها.

ونقلوا إلى قلعة الجبل، وهم ثلاثة وستون نفرًا، في يوم الخميس ثاني عشرين رمضان سنة ثمان وستمائة، فمات منهم إلى ربيع الأول سنة أربع وعشرين وستمائة ثلاثة وعشرون. وتولى وضع القيود في أرجلهم الأمير فخر الدين الطنبا أبو شعرة بن الدويك والي القاهرة.

قال المهذب أبو طالب محمد بن علي، ابن الخيمي: وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة عوقبت بالقلعة، فوجدت بها من الأشراف أربعين شريفًا وهم: الأمير سليمان بن داود بن العاضد، وأبو الفتوح بن العاضد، وحيدرة بن العاضد، وجبريل بن العاضد، وعلي بن العاضد، وعبد القاهر بن حيدرة بن العاضد، وإسماعيل بن عيسى بن العاضد، وعبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد، وأبو القاسم بن أبي الفتوح بن العاضد، وقمر بن علي بن العاضد، ويحيى بن جبريل بن الحافظ، وسليمان بن يحيى المذكور، وتميم بن يحيى المذكور، وعبد الله بن أبي الطاهر بن جبريل، وسليمان بن أبي الطاهر بن جبريل، وأبو جعفر بن أبي الطاهر، وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل، وأبو الحسن بن أبي اليسر بن جبريل، وأحمد بن أبي اليسر بن جبريل، وأبو الحسن بن أبي العباس حسن بن الحافظ، وإبراهيم بن عبد المحسن بن عبد الوهاب بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر، ويونس بن سليمان بن عبد الخالق بن أبي الحسن بن أبي القاسم، وأبو اليسر بشارة بن عبد المحسن ابن أبي محمد بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر، وجعفر بن موسى بن محسن بن داود بن المستنصر، وعلي بن سليمان بن أبي عبد الله ابن داود بن المستنصر، ويحيى بن صدقة بن شبل بن عبد المجيد بن أبي

الحسن بن جعفر بن المستنصر، وعبد الله كمال بن داود بن داود بن يحيى بن أبي علي بن جعفر بن المستنصر، وأبو علي بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبي علي بن جعفر بن المستنصر، وسليمان بن عبد الصمد بن أبي عبد الله بن عبد الكريم بن أبي اليسر بن جعفر بن المستنصر، وأبو علي ابن عبد الصمد، وأخوه، وعبد الكريم بن إبراهيم بن أبي الحسن بن عبد الله بن المستنصر، وعبد الغني بن أبي الرضا بن أبي الحسن بن عبد الله ابن المستنصر، وعبد الصمد بن سليمان بن محمد بن حيدرة بن عقيل بن المستنصر، وإسماعيل بن صدقة بن أبي اليسر بن إسحاق بن المستنصر، وأبو محمد بن موسى بن عبد القادر بن أبي الحسن بن إسحاق ابن المستنصر، وعبد الصمد بن حسن بن أبي الحسن من أولاد المستنصر.

ولم يزالوا معتقلين بقلعة الجبل إلى أن حولوا منها سنة إحدى وأربعين وسبعين وستائة.

هذا آخر ما وجد بخط مؤلفه عفا الله عنه

آخر كتاب اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء للمقرزي.

من كتابة فقير رحمة الله محمد بن أحمد الجيزي الأزهرى الشافعي، لطف الله تعالى (به) وغفر ذنوبه وستر عيوبه والمسلمين أجمعين.

في سنة أربع وثمانين وثمانمائة.